تفاحة ماغريت

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 28284 / 2019

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 446 – 8

الكتاب: تفاحة ماغريت

المؤلف: يوسف هداي ميس

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

تفاحة ماغريت

رواية

يوسف هداي ميس

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

«من مقومات أبسط عمل سريالي أن تشهر المسدسات في الشارع، وتطلق الرصاص عشوائيًا قدر المستطاع بين الجماهير.»

أندريه بريتون

عروس شاغال

«فلتسقط الناتورالية، والانطباعية، والتكعيبية الواقعية.. ومرحبًا بجنوننا.. بحمام نغتسل فيه من أدراننا».

مارك شاغال

الكوابيس تحوم فوقنا، وتدور حولنا، أضحت حياتنا رعبًا مشوب بفوضى، الفوضى الفوضى الفوضى. منذ مجيء الأمريكان ونحن بانتظار النظام الذي يعقب فوضاهم، لم يحل وقته بعد، فالتهمتنا الفوضى. سليم يمسكني من ذراعي، ألهذه الدرجة صرت فاقدة لرشدي؟ وهل بي مقدرة على الركض بهذا الحذاء الثقيل؟ بودي لو رجعت للمزبلة التي انتشلني منها قبيل قليل، أجد فيها نفسي، هي الحقيقة وكل ما عداها وهم، كما إنها تجسد حالتي المتهاوية، ما أنا إلا بضاعة مستهلكة، أُكلت لحما ثم رُميت عظمًا، إنها ضريبة الشهرة!

عيون المارة تتفرسني، وكأنهم يتساءلون عن هذه المرأة المتأنقة ببوت شتائي في غير وقته، هل عرفتموني؟ إنها أنا التي... هل تتذكرونني، لا تدّعوا عدم معرفتكم بي؟ وجوههم مشوهة، آذان شيطانية مدببة الحواف، عيون طولية بحواجب مقوسة، أسنانهم مفترسة ذات أنياب وحشية، أشحت بوجهي عنهم، واكتفيت بالنظر أسفل إلى الانترلوك الأحمر الباهت بأشكاله الهندسية، قصاصات أوراق صغيرة تشوه الأرضية، علبة سجائر فارغة ملقاة قرب سلة مهملات، مشينا بهدوء، وعيناي لا تبرحان تقلبات الرصيف من سطح محفر إلى آخر مغسول يتبعه كاشي سداسي الشكل، لم أرفع عيني حتى وصلنا العمارة التي أقطنها. ولجنا مدخلها ثم صعدنا

السلم، أرقى بخطوات متمهلة، تحررت يدي من قبضة سليم. جارنا المدرس الوسيم يهبط من أعلى، يقابلنا أثناء نزوله، يحيي سليمًا ثم يسأله وكأنه يعرفه مسبقًا:

- **ألا** يوجد لديك رقم أهلها؟ اتصل بهم ليأخذوها إلى بغداد.

- **مع الأسف ما عندي رقم أمها.**

أعطاه مقترحًا وكأنه يحل لغزًا مبهمًا:

- **خذه من هاتفها واتصل بها.**

- **هذا ما سأفعله.**

قال الرجل برجاء:

- **حاول أن تتصل** بأسرع وقت، أخشى أن تحرق علينا العمارة، أو تفعل بنفسها ما يؤذي.

رمقني بقرف ثم أضاف بتأكيد:

- **إنها مجنونة.. مجنونة رسمي.**

خزرته بغضب، لوح بيده مشمئزًا ثم أولاني ظهره. **أكملنا صعودنا ف**ي تسامي يذكرني بلوحات شاغال، يواكبني سليم بخطواته البطيئة خشية سقوطي. ماذا لو ألقيت بنفسي من بسطة السلم؟ نظرت أسفل، درجات حجرية مثلمة، يحيطها درابزين صديء، أحسني جسدًا يطفو

في الفضاء، يختل وزني ويتلاشى، سليم يحدق بي، يخشى سقوطي من بين يديه اللتين تحيطان بي، طالما تمنيت هكذا سقوطًا مدويًا، سقوطًا حقيقيًا غير ذلك الافتراضي الذي هشم سمعتي وجعلني منبوذة. لماذا نعشق السقوط؟

نفرح إزاء منظر رجل مسن يتعكز بعصاه ثم يتعثر فينكفيء على وجهه، نضحك عليه ملء أفواهنا ونعلق بسماجة على شيبته، مثلما أسعدتنا رؤية أبراج نيويورك وهي تتهاوى متكومة حجرًا على حجر. كذلك تطربنا خسارة ثري لأمواله وقعوده على خازوق الفقر والديون، أحببنا السقوط لدرجة أننا نحتفل كل عام بيوم سقوط الصنم.

أنا الآن طافية في الهواء كأني لوحة «العروس» لشاغال، حيث ترتدي امرأة في اللوحة الفستان الأحمر القشيب وينسدل على رأسها وشاح أبيض للعرائس. أين سليم في هذه اللوحة؟ هل هو الخروف العازف الذي يظهر خلفها أم الرجل الذي يعدل وشاحها؟ لا أعلم، كل ما يهمني أنها كانت تسمو إلى الأعلى. فهل فكرت تلك العروس بالانتحار؟ لا أظن.. لعلها سعيدة بزواجها، أما أنا فلربما ألقيت بنفسي، هل أفعلها؟ لا.. لن أقدم على هكذا عمل انتحاري، لقد أشبعنا من العمليات الانتحارية، ووصلنا حدود التخمة.. التخمة من الجثث المحروقة، والأشلاء المقطعة.

برقت أمامي صورة المرأة القتيلة، طفلها البائس ينده عليها، يريدها أن تصحو، فغرت عينيها وتدلى لسانها من بين فكيها المدميين، عباءتها اكتست بالأحمر، والطفل يبكي دون جدوى، أكملت صعودي، وذراعا سليم تحيطان خصري، لم أمنعه، أحس معه بالأمان، توقفت وسط الدرجة قبل الأخيرة، كدت أسقط لولا أن تسندني يده، كنت دائخة، دفعني إلى باب الشقة الغير مقفل، أنزل الأكرة وعبر معي إلى الداخل، أغلق الباب بهدوء، بودي لو أنام الدهر كله، لم يغمض لي جفن منذ البارحة، جلسنا على القنفة، لم ننبس، ولكننا تحدثنا كثيرًا، قرأت كل ما قالته عيناه مثلما قرأني هو أيضًا.

أردت خلع حذائي، مددت يدي، بحثت عن الإبزيم فلم أجده، نهض وجلس تحتي، فتح سحاب البوت الطويل وساعدني في خلعه، ما إن أخرجه من قدمي حتى انزلقت ربلة ساقي بين كفيه، لم يفلتهما، رنا لي بحنو، ولم تزل أصابعه تنغرس في لحمي الطري، ابتلع ريقه، لم أكن خائفة منه، ليس هو بالمفترس الباحث عن غنيمته، لكنه إنسان.. تتجسد فيه كل معاني الإنسانية.

أنزل قدمي على الأرض، وخلع لي الفردة اليسرى، تبدت له قدماي الصغيرتان الغير نظيفتين، أظفارهما الطويلة تثير الاشمئزاز. وددت لو أنه قبلهما، ليكمل «مدرسة الحب» حيث يتغنى بعشق بنت

السلطان، أنا الأميرة وهو الفارس العاشق. ولكنه ليس فارسا، إنه سليم.. **سليم الإنسان. أما الفارس الهمام فقد هجرني، ما أكثر أن خذلتنا** فروسية نمنحها لمن لا يستحقونها. همست:

- **أريد أنام**.

أومأ برأسه، ساعدني على النهوض، أدخلني غرفتي، مددني على السرير، شغل التكييف وخرج.

رأيته يعود عاريًا، بجسد قوي ذي بطن ضامرة بمربعات ستة، وساعدين مشعرين أتذكرهما جيدًا، قضيبه المنتصب يثير بي الرعب، أكبر من الحجم الطبيعي، يهجم علي، أقاومه بلا جدوى، يزمجر ثم يشرع بمحاولة جادة للاغتصاب، صرخت، صرخت بأعلى صوتي، وفجأة.. فُتح الباب، وجدتني جالسة على السرير، وسليم يهدهدني ليخفف من روعي، الغرفة شبه مظلمة، لولا بصيص ضوء يأتي عبر ستارة النافذة، الكهرباء منقطعة وجسمي متعرق، التصق قميصي على ظهري، تتردد أنفاسي بسرعة لاهثة، هرع إلى الثلاجة وجلب لي دورق ماء، صب لي بالقدح، فشربت حد الارتواء، قال:

- **يبدو أنه كابوس**.

قلت في سري، ولكني تمنيته حقيقة! أخرج منديله، جفف العرق عن وجهي، ثم ساعدني على النهوض، قادني إلى الحمام، دخلت

لوحدي، لم أغلق الباب خلفي، درجت إلى وسطه، وقفت تحت الدوش، فتحت صنبوره، انهمر الماء من فتحاته الناعمة، كان لذيذًا منعشًا، تبللت ملابسي، تبدى صدري تحت القميص، لم يبرح مكانه، ينظر لي برأفة، خلعت ملابسي قطعة إثر قطعة، أغمضت عيني، فتحتهما، لم يعد موجودًا.

بعد أن انتهيت، طلبت منه أن يأتيني بالمنشفة المعلقة على الحائط، برزت يده بعد ثوان من خلف الباب ممسكة بمنشفة بيضاء كبيرة، ضحكت ثم أخذتها، لففتها على جسمي، عدت إلى الغرفة، دخلت، ما إن اقتربت من الخزانة حتى انغرزت بقدمي كسرة من زجاج الساعة التي هشمتها البارحة، ندت عني صرخة ألم، مشيت بعرج، انفلتت المنشفة مني، جلست على حافة السرير، علقت قدمي وناديت:

- **سليم.. إلحقني.. لقد جرحت.**

قطرات الدم تسيل مني، ألقيت بجذعي على السرير، تناثرت حبيبات الماء من شعري، وابتل الفراش من تحتي. لم يعرف سليم كيف يتصرف إزاء هذه المرأة التي تستلقي أمامه عارية، لم يستطع صبرًا، فتغلب الجانب الحيواني على ما فيه من إنسانية. ليس له أن يعتذر عما اقترفه، كنت راضية مرضية. الآن فقط اقتنعت به وأحسسته رجلي، قبلها لم يكن كذلك أبدًا، مذ عرفته والضعف يتلبسه، عشقني

بطهر، ولم يتحرش بي يومًا، وحالما التقت أجسادنا ألفيته رقيقًا، لم يقسو علي إذ رآني مستسلمة له، أتم مهمته ثم ارتدى بنطاله، غادر بهدوء إلى الصالة.

لم يترك خلفه دمًا، فالدم المسفوح في بغداد لن يتقاطر في الناصرية، لقد عرف السر واتضحت له الحقيقة، فلعله يترك مشروع الزواج من عاهرة مجنونة. تناولت الدورق الزجاجي، كرعته فاترًا ثم أشعلت سيجارة، رحت أدخن بمزاج رائق بعد سرير ساخن أعاد لي اتزاني. كنت محلقة أثناء اعتلائه لي وكأن هذه الشقة المعلقة مركبة فضائية تجوب بنا بين النجوم، كنا عاشقين مثل لوحة «**العاشقان** محلقان في المدينة» لشاغال، حيث تمازجت فحولته مع النمرة التي بداخلي. حلقنا مثلما حلق شاغال في لوحته فوق السحاب، ممسكًا بذراع حبيبته بيللا التي بدت كالسابحة في الهواء.

أطفأت سيجارتي ثم ارتديت البيجامة، خرجت من الغرفة، وجدته ناكس الرأس في حالة ندم، جلست قبالته، يظن نفسه مخطئًا بحقي. **داخلي يضحك على** هذا «المكرود». تصنعت الزعل، لعله يصالحني بقبلة، كل قبلاته على السرير شهوانية، أريدها قبلة حب ورومانسية.

– **ما بك؟**.

- .....

- **هل أنت نادم؟.**

زفر بحسرة، هم أن يجيب إلا إنه صمت مرة أخرى.

- **لماذا اغتصبتني؟.. يجب أن تعتذر على ما فعلت.**

تلهوج لسانه بعبارات الأسف لولا أن أسكته.

- **لا يكفي ما قلت.**

حيرة تكتنفه، عيناه تسألاني عن مقصدي، نهضت، خطوت نحوه، علائم الخوف ترتسم على محياه، تراجع على كرسيه، انحنيت عليه، التقطت من فمه قبلة سريعة، لم أستطع الإطالة، افترقت شفاهنا، همست بشغف.

- **أحبك.**

تبسم باندهاش، جلست في حضنه، غرقنا في عناق مستعر، أشد حرارة من أجواء الشقة البركانية، غرقت واحترقت حينها، تنحيت عن ركبتيه، جلست بجانبه، ضمني إليه. همس بأذني:

- **غادة.. أحبك.**

لن أرفضك هذه المرة، ولن أغضب عليك مثلما فعلت قبل أشهر، لا طاقة لوحيدة مثلي أن تصد سيل حبك الجارف، حتى وإن كان القلب ممتلئًا. أبعد يده عني، اعتدل في جلسته، قال بحزم:

– أريد رقم تلفون أمك.

– لماذا؟.

– أريد أكلمها.

– لا حاجة لذلك.

– ولكنك بحاجة إليها.

– لا.. لن أعطيك رقمها، ولن أتصل بها، إنها مشغولة هذه الأيام بخطوبة أختي وزواجها.

– ألن تحضري عرسها أنت؟

ضحكت ثم قلت بألم.

– سرعان ما مللتني.

تفرّس بي، قرّب وجهه مني، لفحتني أنفاسه، منحني ابتسامة عريضة ختمها بقوله:

– **غادة**.. أنت هدية لي من السماء، ولن أفرط بك. ولكن..

– لكن؟

– يجب أن أعرضك على طبيب نفسي. شئت أم أبيت. اعتبريه أمرًا مني.

– حاضر.

– **لنذهب** إليه الآن.. عيادته قريبة من هنا.

تركت بوهيميتي وارتديت فستانًا بنفسجي طويلًا وحذاء أسود فلات، خرجنا معًا إلى العيادة، وقبل أن نصل ارتسمت في ذهني صورة لهذا الطبيب، صورة لرجل أكثر جنونًا من مراجعيه، يرتدي نظارة طبية، أذناه عريضتان ورأسه كبير مصفح، هيأته مضحكة، ولكني فوجئت برجل آخر، ملامحه وديعة، بشارب حليق وجبهة عريضة، شعره حالك السواد ممسد إلى الخلف، التجاعيد زاحفة على وجهه الأبيض، يبدو في منتصف العقد الخامس. أنصت لسليم الذي أخبره بكل شيء، كنت جالسة معهم، أستمع لهما يتحدثان عن امرأة مريضة بحاجة لرحلة علاج طويلة، وكأنها امرأة غيري.

رنا لي الطبيب بشفاه مفترة، وبعد حديث لطيف معه طلب مني الانتقال إلى غرفة جانبية، نهضت إلى سرير أسود ملتوي، استلقيت عليه بوضع جد مريح، طلب مني أن أبث كل ما في داخلي من دون تردد. وجدتني بحاجة لهكذا ثرثرة، أردت أن أفرغ تباريح قلبي المشحون، وأن أزفر الهموم عن صدري المكبوت. **لم أعرف من أين أبدأ، اخت**صر الطريق وسألني عن والدتي.

– **أمي**.. **أمي**. **هي** أنقى وأروع أم في هذا الكون، لولاها ولولا حبها لكنت دفينة تحت التراب. كنت أستحق القتل، ليته قتلني

لينتهي عمري. لكنه لم يفعل.. هو من قُتل، مات أخي.. آآآآه عليك يا أخي، ليتني مت قبلك. ذبحتنا بغداد، ولم تبق علينا.

استرسلت بالهذيان، الطبيب يسألني كلما سكت ثم يرخي لي حبل الحديث لتنساب على لساني الكلمات دون عائق يحجزها، فلا حزب سياسي يكممني ولا رادع اجتماعي يوقفني، اعترفت له بكل شيء، ومن دون خجل أو وجل. أطلقت لنفسي العنان بالإسهاب في أدق التفاصيل. لم تكن جلسة واحدة بل عدة جلسات استمرت لثلاثة أشهر خرجت منها بأحسن حال. تخلصت من بقعة زيت تربض على صدري، وأمضيت مع هذا الكرسي العجيب أسعد اللحظات.

لقد عرفت سر إعجاب شاغال في الرسم بلا جاذبية، حيث تطفو الأجرام في لوحاته وليس للزمان فيه شطآن، حتى وصفها أبولينير بأنها**sur naturel** أي: فوق طبيعية. وهكذا كنت على الكرسي، فوق طبيعية، اختلطت الأشياء ببعضها في ذهني، سليم مع منير مع أمي وأختي وأخي. تحدثت بلا عقلانية، فأخرجت جنوني على كرسي الاعتراف. لم يفارقني سليم طيلة رحلة العلاج، وكرر طلبه الجاد في الزواج، طلبت منه الصبر ريثما أسافر إلى بغداد وأفاتح والدتي بالأمر. لم تعد تخيفني بغداد رغم كل ما عانيته فيها.

رجعت إلى سجائري، أجلس متململة من الوحدة والفراغ، واظب سليم على زيارتي كل مساء، يظل يؤانسني حتى التاسعة

ثم يستأذن للانصراف. تطربني مغازلته، وأسمو بسماع القصائد المترجمة عن الشعر الفرنسي. لم يمسسني مرة أخرى، وكأنه يؤجلها إلى ليلة الدخلة، ليلتذ بفاكهتي بعد صبر طويل.

أوراقي أمامي ولم أبدأ الكتابة بعد، نصحني الطبيب في آخر جلسة أن أزاول هوايتي في الرسم، أجبته بأن ما بداخلي لا تستوعبه قماشة بيضاء، ولا باستطاعة فرشاة الرسم أن تؤتيه حقه.

- حكايتنا أكبر من كل اللوحات.

- حكايتكم؟! من أنتم؟

- أنا وسليم..

- اكتبيها إذن.

أضاف:

- اكتبي كل ما يجول في داخلك على الورق.

أكدت ما نصحني به:

- وهو كذلك.. سأكتب.

ما إن غادرته حتى مررت بأول قرطاسية تصادفني، اشتريت بند ورق مخطط ودزينة أقلام جافة. ها هو الورق أمامي والقلم بين أصابعي، فلا ضير من الكتابة، سأبدأ من الصفر، من البداية، من غالا وإيلوار.. أقصد من سليم وصابرين.

غالا وصابرين

«لا تزال بالنسبة لي ذات الرغبة لتأسيس الاختلافات بين الأحلام والقصائد والنصوص الآلية، نحن لا نتناول سرد حلم كقصيدة»

بول ايلوار

يغطس في القنفة، يقرأ رواية نادجا لبريتون، كلما تاه في عوالمها رفع رأسه عما بين يديه، يسحب نفسًا إثر التعب، فهذه الرواية تتطلب مشقة كي يسبر أغوارها. قطته الشيرازية تصدر مواء خافتًا، تحرك ذيلها المعقوف كثيف الشعر، تتنقل أمامه، تقفز على السجادة العجمية ذات الفراء الفاخر، سجادة أذهلت زوجته من النظرة الأولى، حرنت بقربها إلا أن يستبدلها عن السجادة القوقازية القديمة، قديمة في عرف زوجته المغرمة بتغيير قطع الأثاث بين آونة وأخري. **لعل باقة الورد المحاكة بذائقة فنية وصبر فارسي هي التي خلبت لبها. اشتراها لزوجته المولعة بكل نفيس، اشتراها لها وليس للبيت، جل همه إرضاؤها، وإشباع نهمها في التسوق. ملأت بيته بالتحف الغالية الثمن، والمقاعد الوثيرة، والأنتيكات النادرة. تجلل الأثاث الكلاسيكي أجهزة الكترونية حديثة، لا تنفك من استبدالها مع كل جديد.**

- رغم إنها غالية.. ولكنها للبيت يا حبيبي وليست لي.

- صحيح بعد عمري.

- البيت يفرح كلما دخلته قطعة أثاث جديدة.

- وأنا كذلك أفرح يا حبيبتي. إنه بيتنا ويجب أن نجعله سعيدًا دائمًا.

ثم غنى:

- بيت العز يبتنا.

غنت معه بصوت ناعم، طالما دوخه في ليال لاهبة، وسهرات تلفونية حتى الصباح. يوصل الهيدفون بأذنه، ويذوب بهمسها، كان يغني لها تارة، وتضاحكه تارة أخرى وفي بعض الأحيان تصرخ بوجهه إذا ما تعكر مزاجها، تطرب لغنائه، ويصبر على سورات غضبها. مزاجية لم تفارقها حتى بعد الزواج، وقد اعتاد عليها. يطيب له دور الأب مثلما طاب لها أن تؤدي دور الطفلة المدللة. ابتسامتها العذبة تستثير مكامن رغبته، فينهل من نبعها ماء زلالًا يروي به ظمأه. يحملها إلى غرفة النوم، تهمس بأذنه:

- عرج بي إلى الحمام.. حبيبي.

- لماذا؟.

- أريدك تسبحني.

تضحك بعهر، يعربدان في بيتهما السعيد بعيدًا عن عيون الحاسدين. اشتكت قبل قليل من مغص يؤلمها، ها هي تدخل الصالة، تضع يدها على خاصرتها، عودها الريان يميل يمينًا، أرجعت شعرها الأشقر خلفها وقيدته بطوق ذهبي، عدا خصلة هبطت ذؤابتها

على عينها، طالما تناثر شعرها والتهب خلفها بألسنه من النار، فلم يكن له بد من التأمل في قد زوجته وتفاصيل جسدها الشهي، جسد يراه ماثلًا أمامه، يتجلى مع كل ثنية تميل بها، يتبدى زنداها البضان المنبثقان من قميص نوم قصير الأكمام، فخذاها تملآن سروال البيجامة الضيق، مغرية حتى بألمها. داهمه خاطر أن يضاجعها، تقلصات وجهها تزيدها جمالًا، إنها تصرخ ألمًا، يا إلهي، نهض من فوره، أمسكها، هتف بوجل:

– ما بك حبيبتي؟..أين المكان الذي يوجعك؟

– هنا.. هنا.

– ارتدي عباءتك.

خب إلى غرفته، تناول محفظته، دسها في جيبه، احتذى نعاله وهرع بالتراكسوت الرياضي، فيما ارتدت عباءتها فوق البيجامة، فتح باب السيارة الخلفي، أجلسها بحنية، شغل المحرك، انطلقت بهما سيارة رينو داستر بيضاء اللون بأقصى سرعة. دقائق وصرخت كوابحها أمام باب طواريء المستشفى. ترجّل، أنزلها، توكأت على كتفه، مشيا بهدوء، دلفا إلى الداخل، يدها تتمسك بمكان الألم، تئن بخفوت، يتفتت قلبه لهول ما يعتريها، ليته يعرف علتها، بل ليته يطير بها إلى أوربا أو أمريكا، لربما يستعصي علاجها هنا. يدخلان غرفة

الطبيب المناوب، يجلس على كرسي دوار خلف طاولة معدنية، ثمة أوراق بيضاء أمامه، لم يكن يرتدي المعطف الأبيض ولا يضع حول رقبته السماعة الطبية.

- هل أنت الدكتور؟

أجابه ببرود.

- نعم.. تفضل.

- إنها مريضة.. خاصرتها تؤلمها.

حدق بها، كأنما أعجبه جمالها، سهم في وجهها، سألها بعد أن اعتدل في جلسته.

- أين مكان الألم؟

تأوهت بخجل، أشارت إلى خاصرتها، جسها بيمينه، لم تتمالك نفسها، صرخت، أبعد يده عنها بسرعة، نهض من مكانه. خرج فتبعاه، أُدخلت ردهة نسائية، لم يسمح له بمرافقتها، بعد قليل من الانتظار خرج الطبيب، خف نحوه.

- ها.. دكتور؟

تكلم بصوت لا يكاد يُسمع:

- احتمال كبير يكون عندها زائدة دودية. يجب أن نجري لها عملية استئصال.

فوجيء بما سمع، كأن حبسة أصابته.

- **ما رأيك؟.. هل أنت موافق؟**

- **موافق على ماذا؟**

تبدت علامة ضيق على وجه الطبيب، فقال بتذمر:

- **على إجراء العملية لها.**

أردف:

- **هل أنت زوجها؟**

- **نعم.. نعم دكتور.**

قال باقتضاب:

- **هل** توافق على إجراء العملية لزوجتك؟

احتار كيف يجيب، لم يكن يعلم بأن إجراء العملية يستوجب موافقة ولي الأمر، أليسوا هم الأطباء وهم من يقررون هكذا أمور تتوقف عليها أرواح الناس؟. صمت، تفكر قليلًا، عيون الدكتور ترنو إليه، ينتظر منه الإجابة. قال بلهوجة:

- **أنت الدكتور وتعرف أكثر مني.**

- **يعني موافق؟**

- **نعم**، نعم.. موافق.

مضى إلى موظف التسجيل، طلب بطاقة إثبات لهما معًا، هو وزوجته. أخرج الهوية من المحفظة، ناولها إياه ثم قال برجاء:

- بصراحة نسيت جنسيتها في البيت، وهي في حالة خطيرة، حبذا لو تسهل الأمر لنا.

وبعد نظرة ذل منحها للموظف أكمل:

- الله يسهل عليك دنيا وآخرة يا رب.

ابتسم الموظف خلف كوة زجاجية، انتظر أن يرأف بحاله وحال المريضة التي معه، تقلصت ابتسامته، تحولت إلى ملامح جادة لا تنذر بالخير، اختصر عليه المجادلة:

- **لو ت**أتي وزيرة الصحة بنفسها، لن أسجلها عندي ما لم تأتني ببطاقة تثبت شخصيتها!

ركض بسرعة إلى سيارته، صرخت إطاراتها وانطلق بها إلى بيته، جلب ما طلبه كبير الآلهة ورب الأرباب الذي لا بد أن يؤدي واجبه بإرجاع المواطن في أول مراجعة له، فهذا هو الطقس الوظيفي المعتاد لديهم ويجب أن يؤدوه بكل خشوع.

أكمل إجراءات المعاملة، معاملة العملية التي لا تبدأ إلا بإجراءات تهون دونها تعقيدات استخراج جواز السفر و روتين إظهار بدل فاقد لبطاقة السكن. أخيرًا وقّع على أكثر من ثلاث ورقات يخلي خلالها

مسؤولية المستشفى إذا ما تعرضت لمضاعفات أثناء العملية أدت إلى وفاتها، فأخطاء الأطباء أمر وارد ومسموح به، وليس له الحق في مقاضاتهم.

دقائق ثم خرجت محمولة على سرير متحرك، تدفعها ممرضتان إلى صالة العمليات، سار حذاءها، تتلوى، تئن بصوت مخنوق، يذكره أنينها هذا بما كانت تصدره من توجع عندما يعتليها، تبدأ بالأنين وتنتهي بالصراخ والخمش واللعن، تلعنه وتلعن أباه، تريد منه المزيد وليس التوقف، مثيرة هي وشبقة، كلما ارتوت قالت هل من مزيد، نيرانها تحرقه، وتفتك به، منحته كل شيء، وجرب معها كل الأوضاع. طلب منها ذات سرير ما يطلبه الأزواج البطرون، رفسته في بطنه، وحذرته من تكرار طلبه. لم يزل وشم أظفارها على ظهره وزنده، ما إن ينتهي منها حتى تتكور على نفسها، كما هي متكورة الآن، تغطيها ملاءة بيضاء، تتوجه إلى صالة العمليات، أدخلوها، بقي على أعصابه، يذرع الممر طولًا وعرضًا، يفرك يديه ويتأفف.

- **اللعنة.. حتى التلفون نسيته في البيت.**

لن يستطيع الاتصال بأهلها، سيكون لوحده معها. **يتذكر ما قالته حين صبابة:** أنت لي.. ستكون أمي وأبي وكل حياتي.

إذن.. لا حاجة لأي كان، سيكون بجانبها حتى تخرج من معافاة.

– إن شاء الله.

قالها برجاء، وطيفها لا يفارق مخيلته. عشقها منذ أيام الجامعة، فتنه جسدها الممشوق، وشفتاها الشهوانيتان. كانت هادئة، قلما يسمع لها صوتًا ولم يرها تضحك أبـدًا، إنما تمنح صديقاتها ابتسامات فاترة، ليس حزنًا بقدر ما هو حياء. وصفوها بالمغرورة، بيد إنها كانت متزنة، أخلاقها مغلفة بعزة نفس، تسير رافعة رأسها كالأميرات، تغطي شعرها بخمار أميري يتوجها مليكة على عرش الجمال. تنظر أمامها ولا تلتفت يمينًا أو شمالًا.

دوخت جل طلبة الكلية، عشقها الكثيرون وخطبها المتيمون، رفضتهم بلا سبب، فليس بهم ما يعيبهم. أما هو فقد صدح بحبها، حينما أنشد لها قصيدة غزل دارت أبياتها على ألسنة الطلبة والطالبات كمعلقة قالها فحول الشعراء. **هي لفحل أيضا** ليس عربيًا بل فرنسيًا. أنشدها في مهرجان شعري نظمه قسم اللغة الفرنسية. ارتقى المنصة وقرأ قصيدة إيلوار:

«على دفاتري المدرسية.. على طاولتي وعلى الأشجار.. على الرمال وعلى الغيوم.. أكتب اسمك»

أكمل القصيدة بصوت يضج بالعشق، وأنهاها قائلًا:

«بقوة كلمة أستعيد حياتي.. وهل ولدت إلا لأعرفك وأسميك يا..».

توقف، لم يعلن اسم المنادى، أجال بصره على المسرح المكتظ بالجمهور، ثم هتف عاليًا:

- يا.. صابرين.

صفق له كل الحاضرين، صفقوا لهذا الحب الأفلاطوني. كانت متمنعة، ولا تمنح أحدًا فرصة للتقرب منها. اكتفى بعشقها عن بعد، وأن يظل حبه لها سرًا يختبيء في زاوية دافئة من قلبه، واستأنس بطيفها الليلي سميرًا يذهب وحشته. **أحبها من طرف واحد، يتأمل فيها إذا ما خطرت** بمشي وئيد، شامخة برأسها. يردد بخفوت بعض أبيات تلك القصيدة كلما مرت أمامه:

- «على كل الصفحات المقروءة.. على كل الصفحات البيضاء.. على الحجر على الدم على الورق أو الرماد»...

يتنهد ثم يتمتم:

- «أكتب اسمك».

اقترح عليه أحد زملائه أن يتجاسر ويتقدم لها، أطلق ضحكة مجلجلة ثم قال بعدم ثقة:

- أتحسبها ترضى بي؟!

نظر إليها وكانت تمتص العصير بعود بلاستيكي مثبت في علبة كارتونية رُسمت عليها صورة فاكهة الفراولة. سرح به خياله المجنون إلى زوايا قذرة، أردف قائلًا لصديقه:

- **لقد رفضت من هم أكفأ** مني عشرات المرات، فكيف تقبل بي؟

- **يا أخي.. حاول.**

- **أخشى أن أصبح سخرية للطلاب.**

- **عمومًا**، لن تكون أول واحد ترفضه.

- **يا** لك من لعين، تريد توريطي فحسب.

- لا أروم لك الورطة، ولكنه مجرد رأي، فكر به جيدًا، لن تخسر شيئًا.

لن يخسر شيئًا بالفعل، لن يخسر شيئًا، هي محاولة ولا ضير من المضي بها قدمًا. كانت السنة الأخيرة، وفي فترة الامتحانات النهائية، طلب من زميلة له أن تفاتحها بنيته في التقدم لخطبتها، فإن وافقت كان بها، وإن رفضته لن يشعر برفضها أحد، سيما وأنهما على أبواب التخرج. جاءه الرد مفاجئًا، هزه من الأعماق، كاد يرقص فرحًا، قالت لصديقته:

- إذا كان يرغب بي حقيقة فليأت من الباب، يذهب لأهلي ويتقدم لخطبتي، فإن وافقوا فأنا موافقة، وإن رفضوا فأنا كذلك.

بهذه السهولة؟! صابرين التي حيرت كلية الآداب برمتها، وأوقفتها على قدم واحدة، تستسلم بهذه السهولة، تسلم أمر زواجها إلى القدر. مفاجأة مشوبة بسعادة، بالتأكيد سيوافق أهلها، إنه من عائلة غنية وليس هناك ما ينقصه، كما أن كليهما من الناصرية ويدرسان في بغداد. سيوفر لها بيتًا لوحدها، ومعيشة رغدًا، ولن يعجزه إسعادها.

وهكذا تمت الخطوبة، أصبحا أقرب لبعضهما مما يتصور، لم يسمح لها المجتمع المحافظ أن تخرج معه، بيد أن التلفون كان وسيلة متاحة للتواصل. خرجت عن صمتها عبر أثير الهاتف، وأضاءت بجمال روحها عتمة لياليه المدلهمة بالضجر، غنى لها بصوته العذب، واعترفت بمشاعرها تجاهه، أخبرته بأنها تعيش معه أجمل قصة حب، لا زيف فيها ولا خداع، إنه حب ما بعد الخطوبة وقبل الزواج.

- سنقول لأبنائنا بأننا تزوجنا بعد قصة حب حقيقية.

- أكيد حبيبتي.

سرعان ما تزوجا، ليكتشف في أول خلوة لهما جواهر كنوزها المخبوءة، جسد عبقري ونهدان نافران، خصر ضامر وأرداف متوثبة. عرف بأن جل همها المحافظة على جسمها، حرمت نفسها من وجبة العشاء واختارت لنفسها نظامًا غذائيًا لأجل ديمومة رشاقتها. جسد

باذخ العطاء ظفر به لوحده، ولن يفرِّط به. ناضجة مثل البرتقالة الراوية، أسماها البرتقالة وغنى لها: «يا البرتقالة.. امعلكة وتزهين.. يا البرتقالة». مع كل سرير ساخن، يشغل لها هذه الأغنية على سماعة هادرة، وتحت ضوء الغرفة الأحمر، تغويه بقميص نوم شفاف، تحكم قبضتها خلف ظهره وتضغطه على صدرها، تقبله وتحتك به، تثيره وتجننه. **سألته ذات ليلة:**

- ماذا أعجبك بي؟

_كلك على بعضك حلو.. والأحلى الغزل البعيونك.

تقطع أغنيته وتهمس بدلع:

- **أريد شيئًا** ملموسًا حبيبي.

- **جسدك يدوخني.**

- **جسدي دوخني أنا قبلك.**

- .....

- **قبل الزواج كنت أخلع ملابسي، وأتعرى تمامًا** لنفسي. أعشقني وأنا عارية.

تسكت، تطرق أرضًا، ثم تكمل بخجل:

- **أسأل نفسي.. ترى، لمن** سيكون هذا الجسد؟ من ذا الذي يحظى به؟

- وبعدها؟

- أحتضن المخدة وأنام عارية.

تضحك بخفوت.

- يا لك من جنسية.

- لست جنسية ولكن.. سكسية!

بالفعل، إنها مثيرة.. مثيرة جدًا.. ها هو باب صالة العمليات يفتح، ثمة ممرضة طويلة توليه ظهرها، ترجع إلى الوراء، يخرج بعدها السرير المتحرك، تدفعه ممرضة أخرى، قصيرة ممتلئة، كانتا تتعاونان على السرير، تقودانه بهدوء، تتمدد عليه زوجته، متجلببة بعباءتها، تئن بصوت مسموع، يرتفع رويدًا مع مسير السرير، سار بمحاذاتها، التفتت نحوه الممرضة القصيرة، همست له:

- إكراميتنا!

مفردة الإكرامية تعني الرشوة، هي ليست رشوة بقدر ما هي «خوة» تؤخذ عنوة من جيوب الفقراء جراء خدمة يفترض أن تقوم بها الممرضة وتؤديها كواجب مكلفة به، وإن لم يرضخ لها ويدفع الجباية المقررة لشخصها الكريم فالويل ثم الويل.. ليس له، ولكن لزوجته المريضة، من بداية حركة السرير الذي سوف تزداد سرعته اضطرادًا إلى القسوة

في حملها ونقلها إلى سريرها الثابت، وما إلى ذلك من وضع الكانيولا أو زرق الأبر. سوف تعاني الأمرين إن لم يمنحها العشرة آلاف دينار. **ناولها خلسة المبلغ المطلوب، ابتسمت له، وقالت:**

- لا تخف.. راح انداريها لك.

وصلت إلى ردهة النساء، حملتاها الممرضتان وأنزلتاها على السرير الثابت. حال هبوطها أطلقت صرخة مدوية، ذكرته بصراخها الشبق أثناء نوبات الهياج التي تعتريها على سرير المتعة. تولول، تنادي أمها بألم:

- أينك يا أمي.. أينك لتري ماذا فعلوا بابنتك، آه يا أمي آه.

تسأله أحدى الممرضتين:

- أين أمها.. أو أخواتها؟

قبل أن يجيب تردف الأخرى:

- أليس لها أهل؟ لا أرى أحدا منهم.

يجيب باعتذار:

- بصراحة.. تمرضت فجأة، ولم أستطع إخبار أيا من أهلها بما هي عليه.

قالت الممرضة الطويلة النحيلة:

- إذن.. عليك الإتصال بهن.. فالردهة مخصصة للنساء، ولا يجوز للرجال التواجد هنا.

يبدو أن صديقتها لم تقاسمها الإكرامية، تراها تريد عشرة آلاف أخر؟ زوجته تصرخ باكية، تنادي على أمها، خزر الممرضة القصيرة فقالت:

- سنسمح لك بالبقاء.

نظرت لصديقتها بمغزى، لم تتفوه. استمرت زوجته بالهذيان:

_أين أنت يا أمي؟ أحتاجك لتكوني جواري، إني وحيدة يا أماه، من لي في هذه الدنيا الغبراء إن تخليت أنت عني؟ لا تبتعدي عني يا أمي، لماذا تختفين حين أكون بأمس الحاجة إليك؟.. أخخخخ خاصرتي تؤلمني. اااااه. ما الذي فعلته بي يا دكتور؟

لسانها ثقيل، شفتها السفلى مرتخية، صرخت بألم:

- أينك يا أمي؟.. إني أعلم أين أنت الآن، أنت عندها، تجلسين عند حبيبة القلب، ابنتك العزيزة الغالية، طبعًا.. أليست هي الكبرى؟ إنها ابنتك التي تفضلينها علي دائمًا. أعرف أين أنت الآن، أنت عند حبيبتك سعاد. والله أريد ألعن أباك حتى أبا سعاد معك. لماذا يا أمي؟.. لماذا تحبينها أكثر مني؟.. منذ الصغر وأنا أحسك تكرهينني وتفضلينها علي، ولكني بحاجتك يا أمي، إني محتاجة لك يا أماه.

تنادي أمها، تهذي بها، تريدها حالًا. قال في سريرته:

– **حتى وإن كانت أمك لا تحبك يا حبيبتي، فأنا أحبك، أنا لك وأنت لي.**

اتخذ قرارًا حاسمًا بعد أن استمع لما تتفوه به. قال بصوت مهموس:

– **لن أتركك ما حييت يا بعد روحي**، ولن أتخلى عنك مهما كانت الظروف.

آه يا حبيبتي، لم أكن أعلم بمعاناتك، أما الآن فقد بحت بمكنونات صدرك، بعد أن فتح لك المخدر كوة تبثين من خلالها آلامك، لم تزل تهذي:

– **أظنك ذهبت إليه، لا تنكري، أعلم إنك لا** زلت على علاقة به، ذلك الشاب الأسمر الذي كان ينسل إلى بيتنا حال مغادرة أبي إلى عمله.

صُعق مما يسمع، ما الذي تقوله زوجته؟ أصاخ لها السمع.

– **هل تذكرين؟.. هل تذك**رين حين دهمت عليكما غرفة النوم؟

أطلقت ضحكة رنانة بنبرة ممزوجة بألم، وضعت يدها على خاصرتها ثم أكملت:

- كنت ترزحين من تحته، نهرتيني وطردتيني.

غير معقول.. أم صابرين!..**لا، لا مستحيل.**

- كم أنت مسكين يا أبي، أطرش بالزفة، لا تعلم ما يجري في بيتك، ولا تعرف كيف يتلطخ شرفك، مسكين أنت يا أبي، لا تعلم بخيانة زوجتك. أبي.. أبي.. إن أمي تخونك يا أبي. نعم، إنها تخونك..تخونك مع جارنا، رأيتهما بأم عيني يا أبي، إنك لا تعلم، أنت مسكين.. مسكين. حرمك المصون تنتهك طفولة بناتها، هتكت عفتي بعد أن مثلت فيلمًا إباحيًا أمامي، بثته على الهواء مباشرة وأنا في التاسعة من عمري. مسكين يا أبي، مسكين يا أبي.. مسكين.

- مسكين يا عمي.

- حتى سعاد كذلك، قحبة! أعلم ولعها بالصبية الحلوين. لم تخجل على نفسها تلك الساقطة. أم الرجولة.

تجهم، ألهذه الدرجة من الانحطاط تصل إليها عائلة زوجته وهو آخر من يعلم؟ لم تزل تهذي بصوت مرتفع، فيما كان متخشبًا في مكانه من أثر الصدمة.

- مالك تقف قبالتي هكذا.. مثل الحمار؟

قطب جبينه، التفت يمينًا ويسارًا، الردهة ملأى بالنساء المريضات ومرافقاتهن، كلهن يتشاغلن بما يوحي بعدم اهتمامهن، منهن من تغشت بعباءتها ومنهن من أولته ظهرها، خجلات مما يسمعن. أحس بأنهن متواطئات معها، وإنما هي تدلي باعترافاتهن على لسانها. كان صوتها مجلجلًا يصدح في أرجاء الصالة. اتجهت إليه بكلامها هذه المرة:

– **طوال عمرك وأنت حمار.. عمرك ما كنت رجلا**، كنت عبارة عن حمار بقضيب كبير.. أنا لا أحترمك، أكرهك أكرهك.

تنهد بعدم رضا، كتم غيظه، توعدها بالعتاب الشديد، وكأنها عرفت نيته فشرعت تردد:

– **البرتقالة.. البرتقالة.. معلكة وتزهين يا البرتقالة.**

أطلقت صرخة ألم، أتبعتها قائلة:

– **أنا البرتقالة.. وأنت القواد الذي يسمسر عليها.**

سحب نفسًا عميقًا، زفر بحرقة، إلا إنها جاءته بالضربة القاضية:

– **كافي.. كافي. حمودي ألا تشبع مني يا حمودي، كافي.**

من يكون حمودي هذا؟ من هو؟ تراها هي الأخرى؟

– **حمودي اتركني، زوجي يقف أمامي، أخشى أن يرانا، ليس الآن يا محمود، ليس الآن، انتظره حتى يذهب.**

توقفت أنفاسه، ضاعت عليه نسمة الهواء.

- **لا تقسو علي**.. ارحمني، أرجوك، حمودي، أموت عليك، أحبك. اضربني حمودي، اضربني، أريد أن أشعر بأني امرأة أمامك، حسسني بالرجولة، لا تضعف أمامي، أريدك يا رجلي.. رجلي. أنت يا محمود رجلي ولا رجلًا لي غيرك.

قلبه يضرب بشدة، يده ترتجف، تتردد أنفاسه، يشهق بقوة، ثم يزفر بلهب.

- **لا تهجرني، أرجوك حمودي، أعطيتك كل ما ترغب به، لم أمنع عنك أي شيء، حتى زوجي لم أسلمه ما منحتك إياه.**

اغرورقت عيناه، قدماه تعجزان عن حمله، هبط على الكرسي، خاطبته بغضب:

- **أنت، هيه، لماذا جلست؟**.. اذهب، اغرب عن وجهي. عندما يراك محمود فإنه لن يأتي، سيهرب منك، تعال يا محمود، زوجي اليوم مسافر، تعال لتبيت ليلتك عندي، لنقضي أحلى ليلة حتى الصباح الباكر، أريد منك ولدًا، نعم أريده منك ليحمل صفاتك الرجولية.

تطلعت إليه بعينين نصف مفتوحتين، صاحت به:

- **أنت.. يا حمار**.. اذهب، لا أريد أن أراك مجددًا، أكرهك، أكرهك. تعال يا محمود، تعال، لا ترحل.

من يكون محمود هذا؟ من؟ ليس بالضرورة أن أعرفه، يكفي إنني عرفت بأنه رجلها الحقيقي، وما أنا بالنسبة لها سوى..!

- **تعال يا حبيبي، لا تهجرني فدوة أروحلك، سأطلب منه الطلاق**.

يرى الدكتور آتيًا من الباب، تتبعه الممرضتان. ذهنه وكل حواسه متمركزة على ما تتفوه به زوجته:

- **أنت يا حمار**.. **طلقني، طلقني الآن، لا أريدك، كم أمقتك، طلقني**.

نهض من على الكرسي، هل أُفرغتْ الردهة من الهواء؟ سحب نفسًا عميقًا، لم تزل رئتاه فارغتين، شعر بأنه حجارة تتهاوى من أعلى جبل، لتركد على السفح بلا حركة. ثمة جرذ كبير تحت سرير زوجته، أطل برأسه واختفى، الممرضتان تقفان خلفه، والدكتور بجواره، لم يأبه لهم، بصق عليها، ثم قال ببرود:

- **عليك اللعنة**.

انصرف على مهل، يستشعر نظرات المريضات ومرافقاتهن تخترقه، ندهت خلفه الممرضة الطويلة:

- لو سمحت أستاذ.. حاول أن تجلب لنا سيرنج لزرق الأبر، تباع في الصيدلية خارج المستشفى.

حدق بها ولم يزل مذهولًا، قالت باعتذار:

- بصراحة.. نفذ كل مخزون السيرنج في صيدليتنا.

أومأ لها برأسه، ثم سار في ممر طويل يفضي إلى الباب الخارجي، مطأطئ الرأس، لا يرى سوى البلاط الرخامي. تبسم لسخف ما سمع، كم هي تافهة هذه الحياة، كيف سخرت منه الأقدار إلى هذا الحد؟ ألقت به في خضم عائلة دنسة، ليقترن بزوجة سيئة المنبت.

هل كان في حلم وها قد صحا منه أم كان يعيش عالمًا واقعيًا؟ ها هو يهيم على وجهه، يجرجر أقدامه بتثاقل، كل ما مضى من أيامه خديعة، وليست حقيقة، كل ما يحيط به محض أوهام. أين الحقيقة؟ ألا من يرشده إليها؟ طار عقلة وفقد صوابه. كيف تحول بهذه السرعة من رجل محترم متزوج من امرأة شريفة إلى ديوث يسمسر على مومس داعرة. خرج إلى الساحة، شغل سيارته، سار بها إلى حيث لا يعلم، أطفأ مكيفها وفتح النافذة، لقد سأم الهواء الاصطناعي، يسير بلا شعور، لم ينعطف بالجادة المؤدية إلى بيته. سيارته تنتهب شارعًا محفرًا تسير عليه أغلى السيارات وأحدثها.

شعب غني ودولة فقيرة، كلا بل شعب فقير ودولة غنية، المعادلة لا تستقيم أيضًا. وماله ومال الشعب؟ تشتت فكره، يصطدم بالمطبات بلا تخفيف، كأنه ينتقم من السيارة، يهتز جسمه لأعلى وأسفل، يختض بطنه، خرج من المدينة، ابتعد عنها، تهرب من دناستها إلى نقاء الريف الذي لم تلوثه ماديات عراق ما بعد 2003. الريف هو الحقيقة، وكل ما عداه زور.

هبط في جادة ترابية، مضى بها رغم وعورتها، ألفى نفسه وسط حقل زراعي، أوقف السيارة، نزل منها، تلوح له عن بعد أضوية المدينة، الظلمة تكلكل على المكان برمته، لا يرى سوى أشباح أشجار تنتصب على أرض سوداء، شهق ملء رئتيه، ثم أطلق صرخة مدوية بددت حجب الصمت، صرخة في وجه الظلم الذي حاق به ممن جعلها ربا وصلى في محراب عشقها، لقد انهارت صوفيته، وتهاوى بنيان صومعته تحت ضربات معول خيانتها. عيناه تغرورقان، تتحدر الدمعات على خديه، تخضل لحيته الأنيقة، تهوى قبضة كفه المضمومة بقسوة على قمرة السيارة، انبعجت قليلًا، تخنقه العبرة، ينفجر باكيًا، يقرفص جالسًا، يضع يده على عينيه، ينتحب بلوعة، يتحول إلى نشيج مخنوق. لم يدم بكاؤه طويلًا، شرع يدور على الحشائش، قضى ليلته هائمًا في الحقل، يحدث نفسه، يضحك ثم يبكي ليضحك مرة أخرى. يضرب كفا بكف، أو يلطم جبينه.

أحس بخطورة ما وصل إليه، كأنه على حافة الجنون. فتح باب السيارة، استلقى على مقعدها الخلفي. طوى كاحليه، واستند على وسادة صغيرة، حقيقة الطبيعة تتشبث به، لا رغبة له بمفارقتها، بوده لو أنها نومته الأخيرة، لو يموت في هذا الحقل الفسيح، إلا أن كل مغيب شمس لا بد وأن يتبعه شروق، وها قد أشرقت ولم ينم إلا لمامًا. زقزقة العصافير تسري عنه بعض أحزانه، المرج الأخضر المترامي يشرح ضيق صدره، جلس خلف المقود وقد قر قراره بأمر أضمره.

ذهب إلى أهل زوجته، جاء بأمها وأخيها، لم يشأ رؤيتها، تحجج بأنه مشغول بأمر طارئ ولا يستطيع الدخول معهما. ترك المستشفى وعاد وحيدًا.

ركن سيارته، هبط ببطء، درج إلى بيته، أدار قفل المفتاح في ثقب الباب، اجتاز الصالة إلى غرفة النوم، خلع ملابسه، ظل واقفا بسروال وفانيلا. **سقطت عيناه على صورتهما** المعلقة على الحائط، بلا إطار أو زجاج، حيث طبعت على لوح خشبي بتقنية حديثة. زوجته ترتدي حلة الزفاف البيضاء، تفتر شفتاها بنصف ابتسامة خجلى، يقف بجوارها، ببنطلون وسترة جوزيين مع ربطة عنق مخططة بالأحمر، يبتسم بانشراح، كمن لم يصدق نفسه، فالزواج منها كان مستحيلًا. حدق بالصورة، هم بكسرها، خطا نحوها، تأملها برأس مرفوع، ردد بانكسار.

- ليس لمثلي أن يرفع رأسه.

تأفف بحرقة، أدوات زينتها تتفرق أمام المرآة الصقيلة، زجاجات عطر متنوعة، مع مساحيق تجميل. طالما تزينت له في ليال حمر، سحرته بفتنتها إذ تختار من العطورات أغلاها، تتضمخ بها وتأتيه بفساتين نوم تظهر أجزاء من كنوز جسدها الباذخ، وتخبئ الدرر الأكثر ثمنًا. لم يزل شذاها يزكم أنفه، ورائحتها الزكية لم تبارح الغرفة بعد.

رفع ملابسه الملقاة على الأرض، فتح باب الخزانة، كومها على الرف، ترك بابها مفتوحًا، شغل جهاز التكييف، ألقى بنفسه على السرير، اهتز سبرنك الفراش من تحته، توسد المخدة، كم هو محتاج لأن يخلد للنوم، لينسى ما سمعه ليلة البارحة، لن يطلق صرخة أخرى، ولن يتصرف بتهور، عليه أن يتفكر في الأمر بتعقل، ويستجلي وضعه المعقد على مهل. إنها تحبه وهو يحبها كذلك. نعم إنهما يحبان بعضهما جدًا. تذكر شاعرهما المفضل بول إيلوار الذي فرض نفسه عليهما عنوة، مذ قرأ لها قصيدته التي كانت سببًا في إعجابها، ومن ثم قبولها به زوجًا. بعدها أصبح لهما نديمًا، حيث يتغزل بها بما يحفظه له من قصائد كتبها لحبيبته وزوجته غالا. تمتم بإحداها:

- **قبلاتنا كانت تتبع طريقًا** متشابهًا.. كنت أعانقك.. كنت تعانقيني.. كنت أعانق نفسي.. كنت تعانقين نفسك دون أن ندرك من كنا.

آه يا صابرين، لم تعلمي أي جرح خلفت في قلبي، وأية ندبة تتركين. ولكني لم أخنك.. ماذا؟ أنت تحبينني؟! كلا، أجزم بأنك لا تحبينني، لا تكذبي علي. أين أنت يا صابرين؟ من أنت؟ من؟ محمود! إنك غريمي يا هذا. عليك اللعنة وعليها وعلى أمريكا. فهي التي جاءت بكل هذا الهراء الذي لم نكن نعرفه من قبل. أمريكا هي السبب، سبب كل قوادة تنخر فينا. بسببها خلعنا لباسنا الداخلي، فتبدت عوراتنا للعيان. افتضح ما كان مستورًا وأصبحنا فرجة للعالمين. إنك قبيح يا محمود، كيف عشقتك هذه الحمقاء؟ لماذا فضلتك علي؟ أنا أجمل منك، وأغنى منك أيضا، إنك قذر وضيع.

لقد خدعتها بصوتك، فقد عرفتك عبر الهاتف النقال ومن دون أن تراك، وبعد أن أغويتها بحديثك السلس، أصبحت معشوقتك. أغرمت بك دون أن تراك، جعلتك طيفًا في مخيلتها، تشكلك كل يوم حسب ما تبتغي. ولكن.. هل يكون الطيف قبيحًا إلى هذا الحد؟ محمود.. صابرين.. صابرين. **محمود**.

استوى جالسًا، كان حلمًا مزعجًا، تبدى فيه محمود بأبشع صورة، محمود! هل هو حقيقة؟ هل تعرف شخصًا بهذا الاسم؟ كيف

انزلقت في وحل الخيانة؟ أرجع رأسه على الوسادة، أغمض عينيه، سحب نفسًا ثم نفخ بضيق، تساءل مع نفسه: ما الذي يثبت خيانتها؟ ألأنها كانت تهذي تحت تأثير المخدر؟ هذا ليس دليلًا، فالأحلام لا يعتد بها، ولكن.. فتح عينيه، سقطت على السقف الثانوي ذي اللون الوردي المتناغم مع طلاء الجدران. تحركت شفتاه:

- **ما هو الحلم؟**..

تفكر في سؤاله ثم أجاب:

- **إنه صورة صادقة لمشاعرنا الحقيقية والتي لم نستطع أن نبوح بها أمام الملأ، فتتكدس في عقلنا الباطن، لتظه**ر لنا على شكل أحلام. أليس كذلك؟

صمت لبرهة، أضاف بعدها:

- **ليس دائمًا**، كثير من الأحلام تحذرنا مما سيحدث مستقبلًا. وتفسر بشكل رمزي.

أطبق شفتيه، واستمر في جدليته، يحدث نفسه صمتًا: الاختلاف قائم حول تفسير الأحلام. لقد حلمت قبل قليل، حلمت لأنني فكرت كثيرًا في محمود، غريمي الذي لم ألتق به أبدًا، فظهر لي بالصورة التي كرهته فيها، أما هي فقد ظهر لها بأجمل تكوين، بدليل استمتاعها معه. **هل ضاجعها** بالفعل؟ أم كانت أمنية استولت عليها

فهذيت بها. وهل محمود شخص حقيقي؟ أم إنه مجرد حلم؟ وهل الحلم حقيقة؟ كم يضحكه رأيًا قرأه لإيلوار إذ جعل من الأحلام نصًا شبيهًا بالشعر، وراح ينشر للأدباء أحلامهم كنصوص أدبية ويتساءل: «ألم تكن الأحلام هي نصوصًا سريالية». **فأية قصيدة نعيشها اليوم وأية سرد حلم نحياه؟**

إنني استكملت هذا الحلم بزوجتي التي أحببتها، لأجدني وجهًا لوجه مع عقلها الباطن، ليدلي باعترافات ليتني لم أسمعها.

جرس الباب يرن بنغمة عصفورية غردت في أرجاء الصالة، من يكون؟ فرك عينيه، نهض بكسل، أخرج قماشة السروال العالقة بين إليتيه، مشى وئيدًا، فتح الباب الخارجي، دخلت سعاد أخت زوجته، عللت مجيئها بجمع بعض من الحاجيات التي تحتاجها صابرين من البيت. رحب بها، سار أمامها، تبعته، خمن بأنها تتملى جسده الذي تشف عنه ملابسه الداخلية، تذكر ما قالته زوجته عنها، همهم خافتًا: يا لك من داعرة!

دلف غرفته، لم تتورع من خلوتها معه في مكان واحد، ولجت الغرفة إثره، فتحت الخزانة، شرعت تقلب الملابس المتكدسة، أخذت ما تحتاجه، نظر لجسدها المفصل تحت العباءة المتهدلة على كتفيها، بان شعرها المصبوغ باللون العسلي وتسريحة مالسة ذات غرة أمامية تهاوت على جبينها، ليست أحلا من زوجته بيد إنها مثيرة.

تلمض، اخترق مؤخرتها المتكورة بنظرة شهوانية لم يكن يعرفها تجاه هذه المرأة من قبل، أما بعد ما سمع فقد تغير كل شيء. ابتلع ريقه، تأوه بضيق، أمسكت بحقيبة صغيرة، أخرجت منها هاتف زوجته، كان يرن بصمت، نظرت إليه، وقبل أن ترجعه، خف نحوها وأخذه منها، تضيء شاشته ويظهر على صفحتها اسم المتصل، أم سارة، والصورة التعريفية لزهرة نرجس حمراء متفتحة، التفت إليها.

– **من** تكون أم سارة؟ هل هي من أقاربكم؟

غاض الدم في وجهها، ارتبكت ثم ردت بلهوجة:

– لا.. مو من أقاربنا.

انتهى الاتصال، تراها تضمر سرًا؟ رجع خطوتين، عيناه مصوبتان على الشاشة، هل يتصل بها؟.. بها أم به؟ قد يكون هذا هو الرقم الذي صار رجلًا. حرك الشاشة الخالية من رمز التشغيل، لم تكن حريصة على درء الفضيحة لفرط ثقته التامة بها ولثقتها المطلقة بغفلته. ألم تنعته بالحمار؟ وإنه لكذلك، ليس لأنه غبي ولكن لصبره على دلعها وكثرة طلباتها. لملمت سعاد ما تحتاجه أختها في حقيبة سفر مكعبة. وقفت بانتظار أن يرجع لها التلفون. حسم الأمر بقوله:

– **تستطيعين الذهاب**، سوف يبقى التلفون معي.

- ليش؟

خزرها باستنكار، أضافت:

- أعتقد راح تحتاجه.

هم أن يقول بأنها تروم التواصل مع عشيقها محمود، لكنه آثر الصمت. أجابها برد ذي مغزى:

- وأنا أحتاجه كذلك.

لم يعطها التلفون، رغم محاولاتها الناعمة، كأنها على علم بما تقترفه أختها. غادرته بزعل، ولسانها مسترسلًا بدمدمة لوم لم يأبه بها. ما إن خرجت حتى اختلى بالهاتف. فتح الوات ساب، ظهرت رسائل كثيرة، ابتدأ بأم سارة. عاد إلى قعر المحادثة ليتسنى له ارتشاف الكأس من ثمالته، وجد ما توقعه، وما لم يتوقعه. في كل حرف سكين مشحوذ يقطع نياط قلبه، يقرأ والبراكين تغلي في جوفه. أرجع الجهاز إلى الخزانة، فكر أن يواجهها بالحقيقة، كيف ستدافع عن نفسها؟ ماذا تقول له؟

تخيل وجهها الممتقع وعينيها المرعوبتين، تضع يدها على وجهها الذاهل ثم تنخرط في موجة بكاء مع صراخ مبهم. لربما تكون ردة فعلها عكس ذلك، كأن ترفع عقيرتها أمامه بتحد صارخ، تعترف بكل ما ارتكبت بلا ندم. من الأفضل ألا يعاتبها، فالعتاب بين

الأحباب، وما مواجهتها إلا دليل على ضعفه. وكأنه ينتظر منها أن تبرر أخطاءها. قرر أخيرًا أن ينفذ ما أضمره صباحًا، ويرسل التلفون إلى أبيها ويشهده على خيانتها، ثم يطلقها، كأن شيئًا لم يكن. فهي لا تستحق أن يمنحها أكبر من حجمها.

اختنق بجو الغرفة المشبع بعطرها، خرج إلى الصالة، استلقى على قنفة اسفنجية، تذكّر أغنية البرتقالة، ورقصها عليها. استدعت له قصيدة لإيلوار، رددها:

– » **تنفلقين كفاكهة ناضجة... آه أيتها الشهية**».

كانت متعته أن ترقص له ومتعتها أن يحممها. فإذا ما غطست في المسبح، وشرعت يداه تدعكان جسمها، يروق لها أن تدندن بما قاله إيلوار على لسان غالا، فتغني وهي تتلوى بين أحضانه تحت رغوة الصابون:»لماذا أنا جميلة هكذا؟ لأن سيدي يحممني». كانت قصائد إيلوار حاضرة معهما دومًا، في الحمام وفي غرفة النوم، والمطبخ، وأينما ذهبا كانا يشدوان بشعره الرائق الذي حفظاه كتعويذة تقيهما شرور الزمن. فمثلما كان سببًا لحبهما أرادا أن يجعلاه سببًا لدوام عشقهما. إذن.. لماذا خانته؟

نفض رأسه، بوده لو يخرجها من ذهنه، خطرت له رسالة كتبها إيلوار إلى غالا: «أحبك، أحبك، أحبك، أحبك، لا أحب سواك،

سترين كم سأدللك، أحبك..» إنها رسالة مفعمة بالحب، لدرجة أنه لم يجد ما يعبر به عما يختلج بداخله من أحاسيس، فاكتفى بترديد كلمة أحبك وهو الشاعر العظيم الذي لا يعوزه الخيال الخصب ولا الكلمات المعبرة، وكأنما ضاعت منه المفردات فلم يجد سوى هذه الكلمة، كأنه مراهق يكتب أولى رسائله لحبيبته. ورغم كل هذا الحب فإن غالا خانت إيلوار مع سلفادور دالي. واليوم تأتي صابرين لتكرر ما فعلته غالا، بيد أنها تفوقت عليها بالعدد، فلم تكتف بحبيب واحد، بل كانوا كثر.

همهم في سره وكأنه يخاطب إيلوار: لقد كنت محظوظًا يا إيلوار، ظل حبكما حيًا رغم زواجها من سلفادور دالي، بدليل استمرار الرسائل المتبادلة بينكما كأثر أدبي قرأناه سويًا أنا وصابرين. **لم أكن** أعلم بأني سأكرر تجربتك، ولا أظنني قادرًا على نسيانها بسهولة، فمن الصعب اقتلاعها من قلبي. وكأني بنفسي متكئ بجبيني على النافذة، متأملًا عودتها لي نادمة، ولسان حالي ينشد ما كتبتَه إلى غالا: «الجبين على زجاج النافذة.. كما هي حال الساهرين التعساء.. أفتش عنك عبر الانتظار.. عبر نفسي.. ولا أعود أعرف لشدة ما أحبك.. أينا الغائب».

كنتَ عاشقًا حقيقيًا، هاربًا من واقع الحروب الكئيب إلى عالم حلمي جميل، فإلى أي عالم أهرب يا صديقي؟ إن كان العالم الذي

أعيشه أضغاث أحلام. فأين أنا منك ومن جبروتك أيها الصنديد، كافحت لأجل الحرية، قاتلت النازيين، وكتبت قصيدتك الأكثر شهرة، أسميتها حرية. جلب لكم الأمريكان الحرية بعد حرب ضروس مع المحتل النازي، وهو عين ما فعلوه في العراق، حررونا من بطش صدام ومنحونا الحرية. حرية مقرونة بانفتاح اقتصادي على السوق العالمية، أغرقونا بشتى البضائع ومن كافة الصناعات، أحدث المنتجات أضحت متوفرة بين أيدينا، أصبحنا جزءًا من هذا العالم الكبير بعد أن كنا محبوسين في زنزانة صغيرة أسمها عراق صدام حسين. ولفرط فرحتنا بهذه الأمركة، فقد عبرنا بوابتها الواسعة بأقصى سرعة، وما بين ليلة وضحاها علقنا أطباق الستلايت على السطوح، وتمنطقنا بالهواتف النقالة.

اشتريت لها تلفون كلاكسي فرحت به أيما فرح، جعلته نافذة تطل من خلالها على العالم الخارجي، ووكرًا تستدرج إليه ضحاياها. كان التلفون سببًا في خراب بيتها، عشها الذي ابتنته طار مع أول هبة ريح تعصف به. ما أجمل قولك يا إيلوار عندما تذكر غالا ببيتكم الآمن: «تتدثرين، تشعين، تنامين وتستيقظين طوال الفصول الأمنية.. وتعمرين بيتًا.. يمنحه قلبك النضج.. مثل سرير، مثل ثمرة، ويستجير جسدك به.. وتتمدد فيه أحلامك.. ذاك هو بيت الأيام الرقيقة.. ومن

ثم قُبلٌ في الليل». بودي لو تقرأ صابرين هذه القصيدة لتعرف أية حماقة ارتكبتها.

إيلوار.. كنت سرياليًا بقصائدك ورومانسيًا بعشقك، أما أنا فالسريالية غمرتني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، مذ تزوجتها وأنا أحلم، وها أنا ذا، بعد سنتين من زواجنا.. أصحو من حلمي.

بين الإسكافية وروزينا

«لماذا ولدت بين المرايا؟

النهار يلفني

والليل يقلدني في كل نجومه»

لوركا

أن تأتي امرأة من أعماق التاريخ وتقفز فجأة إلى زمن ما بعد الحداثة فتلك هي الصدمة. وهذا ما حدث معي بالضبط، فقد أصبحت تائهة وسط معمعة العولمة. لست وحيدة في ذلك، وإنما هذا ما جرى لكل العراقيين بعد عام ألفين وثلاثة. كنا خارج الزمن، وكل ما نعرفه من الدنيا اثنين لا أكثر.. البطاقة التموينية وصدام حسين. كانت وسائل النقل بدائية تعي عصر فجر السلالات. النقل النهري مقتصر على القارب السومري، ولم تزل الخيل تجر العربات وتسير في الطرقات الترابية، حتى ما تجاوز منها عتبة القرن العشرين، مجرد خردوات من سيارات متهالكة عفا عليها الدهر.

ومن يروم السفر إلى بغداد عليه أن يكابد طقطقة الريل، من دون أن يشتم رائحة الهيل أو يستمع لرنين الهاون أثناء طحن القهوة التي اختفت هي الأخرى مع اختفاء البضائع المستوردة. كان تبريد الماء يتم على الطريقة الأثرية في الحب الفخاري، والإنارة لا تتم إلا عبر اللالة النفطية. كنا مكتفين بالعدس والفاصوليا كوجبة دائمة لا تتغير، مع السير على طرق لم يمر عليها التبليط قط. كانت المدن تخلو من أية مظاهر للتشجير إثر أزمات الغاز واللجوء إلى التنور الطيني حيث سُجرت الأشجار وقودا لنار الخبازات.

وأثناء ما كنا نعيش في زمن ما قبل الثورة الصناعية كما وعدنا الأمريكان وأوفوا بوعدهم مشكورين، ألفينا أنفسنا وبلا سابق إنذار

وسط ضجيج السوشل ميديا والتطور التكنولوجي الهائل، وما بين ليلة وضحاها ارتقت أطباق الستلايت البيوت القميئة، واعتلت اللواقط الشبكية منها والبيضاء الصغيرة القضبان الحديدية فوق المباني، وانتشرت الأبراج الحديدية بين الشوارع وفوق السطوح العريضة للبيوت الكبيرة. وبدل من برج إيفل أصبح لدينا في كل حي أبراج متعددة. اختفت لواقط البث الأرضي التي كانت صفائح معدنية مخرمة.

لم يكن الغزو الحداثي الهائل تقنيًا فحسب، بل اقتصاديًا بالصميم، إذ ضرب ركود حياة العراقيين بحجر حرك بحيرتهم على شكل دوامات بعضها يتبع بعضًا، فتحولنا من اشتراكية حزب البعث إلى رأسمالية العراق الجديد، ولم تعد البطاقة التموينية تجدي نفعًا وسط غزو المعلبات المستوردة التي لم نكن نعرف منها شيئًا، فانتهى زمن العدس وحلت مكانه البيتزا الجاهزة، مثلما احتل الكاباتشينو مكان القهوة العربية، وجاء سمك التونا والسردين المعلب بدلًا عن المسموطة المجففة.

أصبح الموبايل جزءًا من حياتنا اليومية وعرفنا السيلفي والكام والتكنيك. كان غزوًا فضائيًا أكثر مما هو أرضي. رحل الأمريكان عن أرضنا وبقيت مخلفاتهم تسبح في فضائنا. وكأنما هي حرب

بين فضاء العراق وأرضه. أرضه المفعمة بالتقاليد العربية الأصيلة والروح الدينية المتجذرة في نفوسنا منذ الأزل، تواجه غزوًا مخمليًا آتيًا من الفضاء، يظهر على شكل صورة ثابتة ومتحركة على شاشات التلفزة والحواسيب والهواتف النقالة. وهكذا أصبحت أفلام البورنو والصور الإباحية والأغاني الخليعة تملأ الفضاء ساخرة مما تعج به الشوارع والساحات من هوسات عشائرية ومسيرات دينية وجوامع ملأى بالمصلين.

إنها حرب ضروس بين الفضاء والأرض، تذكرني بمغامرات الفضاء، حيث كان دوكفليت ودكتور أمون يقاومان وحوش فيغا الكبير. ما أثارني بذلك المسلسل الكارتوني تلك المحادثات التي تتم عبر شاشة كبيرة بين قائد كاندال من سطح القمر ورئيسه القابع في كوكب آخر حيث تظهر صورته ملء شاشة كبيرة، ويتم الحوار بالصوت والصورة. تقنية انترنت سبقت وقتها بعقود. فأنى لنا بغريندايزر يقاوم هذا الغزو الافتراضي؟

البكاء والمآتم على الأرض والغناء والرقص في الفضاء، فمن ينتصر؟ طالما طرحت هذا السؤال على نفسي الملولة والمتكاسلة دومًـا، حتى إنني أقضي جل وقتي خلف شاشة الكومبيوتر أو الموبايل، أتقلب بين مواقع الإنترنت المختلفة. وكلما وجدتني أمام

جوجل أحتار بما أكتب في مستطيله الصغير. لا أعلم كيف انبرت أناملي ذلك اليوم وكتبت الكلمة الأكثر تداولًا في محرك البحث وفي كل لغات العالم.. فضيحة! ثم أتبعتها بكلمة بنت، سرعان ما قدم لي جوجل بسخاء عدة خيارات.

وبدافع الفضول ومن دون أي تفكير، اخترت التلصص على بنات جلدتي، فدخلت على فضيحة بنت عراقية، أتبعتها بضربة حظ. ابيضت الشاشة ثم ظهرت صفحة لموقع لم أسمع به من قبل، اسمه: «الخوة الوصخة». تقصد مؤسسه أن يستبدل السين بالصاد ليعطي الاسم نكهة محلية. لم يزل تحميل الصفحة جار، حيث لم يظهر سوى العنوان مخطوطًا باللون الأحمر كتب تحته باللهجة المحلية: «لحد يصير شريف براسي». كانت الصورة الخلفية لمؤخرة فتاة ترتدي كيلوتا ضيقا. اكتملت الصفحة، ظهرت لي مقاطع فيديو بانتظار التشغيل، وتحت كل منها كتبت عبارات مثيرة تدفع المشاهد أن يسرع في الضغط على مثلث الفتح. بدأت بقراءة الكلمات تحتها.

امرأة متزوجة مع أخو زوجها.

بنية صاكة مع صاحبها في غرفتها.

بنت مولعة تغتصب الرجال في غرفة النوم.

طالبة مدرسة تعشق الرومانسية..لا يفوتكم.

رنا وصلاح في الحمام.

تظهر على كل مقطع صورة ثابتة على أهبة الاستعداد للتحرك، بعضها لنساء يرتدين ملابس بيوت وأخريات بملابس داخلية ملونة مع رجال شبه عراة.

- بمن أبدأ؟

فتحت الأول، الشاب يضع الكاميرا على الطاولة، يثبتها ثم يبتعد، تدخل عليه فتاة عشرينية، ريانة الطول، ترتدي ثوبًا أزرق عريضًا، تخلو من المكياج، يبدو أنها في بيت أهلها، والأرجح في بيت زوجها. أظنها خارجة للتو من المطبخ، ثنت أكمامها فتبدت ذراعاها البيضاوان كقضيبين عاجيين. عيناها تترددان بين الشاب وباب الغرفة، تأكدت بعدم وجود خطر داهم، أحكمت غلق الباب، انقضّا على بعضهما، التقت شفتاهما، يلتهمان بعضهما بنهم. شُدهتُ لما أرى، فغرت فاهي وتسمرت عيناي، من تكون هذه الفتاة يا ترى؟ هل هي بالفعل زوجة أخ الشاب كما هو مكتوب؟ استمررتُ في المتابعة. سمعا صوتًا، افترقت الشفاه، خرجتْ للتأكد عمن يكون في الخارج، بقي لوحده، دخل طفل صغير، يبدو إن هذا الشاب ضمن أهل الدار وليس زائرًا متخفيًا،

يخاطبه الطفل فيرد عليه بكلمة عمو. هل هو ابنها؟ كل الدلائل تشير على إنها كنة في البيت، وما هذا الطفل إلا ابنها. خرج الطفل ثم دخلت الفتاة مرة أخرى، وبعد تبادل سريع للقبل أولته ظهرها ورفعت ثوبها! هتفت في مكاني:

- عليك اللعنة.. ماذا تفعلين؟!

وبعد أن مارسا بوضع الوقوف، أفرغ غريزته بسرعة الحيوانات، وأسدلت ثوبها كأن شيئًا لم يكن. خرجت بسرعة خشية أن يُكتشف أمرها، رجع الشاب وأغلق التصوير دون علمها. **كان مقطعا** مقززًا يخلو من الإثارة. فتحت مقطعًا آخر، كان مدهشًا ومحكمًا، كأنه فيلم سينمائي، شاب طويل القامة قوي الجسم، ذو لحية على شكل كرسي وشارب خفيف، يرتدي بنطالًا وبلوزة شتائية، فيما ارتدت صاحبته ثوبًا أسود رديئًا، وجهها يخلو من أية أصباغ، وجمالها الطبيعي مذهل. من الواضح أنه دهم عليها البيت بغفلة من ذويها، كانت لوحدها بدليل تحذيرها له بأن أهلها قد يأتون في أية لحظة، وعليه أن يستعجل الأمر، سيما وإنها تروم الذهاب لحضور مناسبة دينية ولا تريد أن تتنجس ملابسها. قال لها بصريح العبارة: «لن أكتفي بواحد.. أريد اثنين».

ابتدآ واقفين، ارتخت تحت تخدير قبلاته، نضت ملابسها عن جسم خرافي، خلع بنطاله، نوّمها على حافة السرير. **تخشبتُ** في

مكاني، عيناي تخترقان الشاشة، تلفونها يرن من بعيد، ابتعد عنها، سارت بجسمها العاري ونهداها يتحركان مع كل خطوة تخطوها، اقترب الشاب من الكاميرا المنصوبة، وجَّهها على الأرض، رجعت وبيدها الهاتف النقال، مددها أرضًا، ألقت الهاتف جانبًا، فرّج ما بين فخذيها، توسطهما، ما إن ولجها حتى رن ثانية، انصرفت له بشق وشقها الآخر تحت عشيقها لم يُحول. تكلمت:

- هلو حبيبي..

زوجها هو المتصل، تناديه حبيبي**!. كيف لها أن تكلم زوجها بهذه العاطفة في الوقت الذي تستلقي فيه تحت رجل** آخر. أية قدرة لديها على التمثيل؟ احترق قلبي على ذلك الزوج المغدور، وحقدت على هذه الزوجة الخائنة. تساءلت، كيف تزامن اتصال زوجها مع فعل الخيانة مع التصوير؟ أية مصادفة هي بل أي شيطان مريد أخرج لنا هذا المقطع؟ إنه فلم سينمائي بإخراج شيطاني، الشيطان وحده قادر على ترتيب الأدوار ووضع الكاميرا، وهو الذي هيأ كل هذه الصدف. ألا لعنة الله على الشيطان الرجيم.

المقطع التالي لزوجين في غرفة النوم. الوضع جد طبيعي، فتاة شبه عارية، لا يتجاوز عمرها الثامنة عشر، مع زوجها الزعطوط الذي نصب الكاميرا على طرف السرير، ثم اضطجع بكامل ملابسه

الرياضية، انحنت عليه زوجته الملتهبة وغرقا في قبلة طويلة. توترتُ أمام هذا المشهد.

- معقولة؟.

كيف يحصل هذا؟ ممارسة جنسية كاملة بين زوجين حديثين، وبكل تفاصيلها تظهر أمامي هكذا بالصوت والصورة؟ أكثر ممثلات السينما إغراء يأنفن من تصوير العلاقة الحميمة الكاملة. وهذا العريس الأحمق يعرض نفسه وزوجته أمام ملايين المشاهدين بكل بساطة! لم أستطع إكمال المقطع، خرجت من النت مذهولة وكل ذهني مشغول بما رأيت من كوارث، وألف سؤال وسؤال يفرقع في رأسي. ما الذي شاهدته قبل قليل؟ هل كنت أحلم؟

ما مصير هاتيك النسوة؟ هل قتلهن ذويهن؟ وما مصير الرجال المفضوحين أيضا؟ ما مصير الشاب الخائن مع تلك الفتاة؟ هل كان أخا لزوجها بالفعل؟ لا أظن، بدليل الغرفة شبه الفارغة وملابسه المعلقة على المسامير. كانت البناطيل رصاصية والقمصان بيضاء مما يثبت أنه طالب جامعي سكن لديهم مؤقتًا هربًا من لوعة الأقسام الداخلية. أعطوه غرفة معزولة في الطابق الثاني، الشاب يقرأ لوحده، تدخل عليه الكنة أثناء غياب زوجها بحجة تقديم الشاي أو العشاء، تتحدث معه قليلًا، تحاول إغواءه أو ربما هو من ابتدأ المحاولة، المهم أن الشيطان

كان ثالثهما، فحدث تقارب ما بعيدا عن عيون بقية العائلة القابعة في الدور الأرضي، ودون علم الزوج الذي يقضي جل وقته خارج البيت ما بين عمله وأصدقائه. سرح خيالي في المقطع الأخير للعريسين الشابين. أظن أن أم الشاب ذهبت لأهل العروس تخطبها لابنها:

– **ابني خوش** اوليد، ويشتغل مع أبوه بالمحل.

كلا كلا.

– **ابني طالب بالكلية وبس يتخرج أكيد يتعين.. واحنا الحمد لله بخير ونعمة، وحتى لو ما يتعين هو يقدر يصرف عليها.**

في كل الأحوال تمت الخطبة والزواج. ابتدأ أيامه الأولى فحلًا، وكانت هي قطة بين يديه، تقفز هنا وهناك، تخمشه تارة وتتحسس خضنه تارة أخرى. دخل الغرفة ليلًا، وجدها بكامل زينتها، شبه عارية في ملابسها الداخلية الشفافة، شغل كاميرا تلفونه لغرض التوثيق، ثم حدثت الكارثة. طلقها أهلها، ووبخه أهله، وربما ضربه أبوه. البنت تحطمت ولم يتقدم لخطبتها أحد، والشاب تزوج مرة أخرى على ألا يعاود تصوير عروسه الجديدة!

لعل كل هذه السيناريوهات ليست صحيحة، وهنالك مصائر أخرى لهذه الشخصيات. هل قلت شخصيات؟! بمعنى كاركتار.. هل أصبحوا ممثلين وممثلات يعرفهم الجمهور؟ هل أصبحت ذات

الرداء الأسود أكثر شهرة من أفضل ممثلة عراقية لا يشاهد مسلسلاتها حتى العراقيون. وهل حفظ المشاهدون تفاصيل جسدها الساحر أكثر مما يحفظون ترهلات بطون نسائهم؟ هل أصبحت مؤخرتها أكثر شهرة من وجه انجيلا جولي مثلا؟

لعل هذه المقاطع القصيرة مجرد إعلانات ممولة عن أفلام طويلة لم نشاهد منها إلا لحظة الذروة، ودعوة للمشاهد أن يبحث عن حكاية جرت قبلها ومأساة حدثت بعدها. لكل مقطع منها بطلان اثنان. رجل وامرأة، يظهران على الشاشة الصغيرة، وعشرات الشخصيات التي لم نرها، ولكنها مثلت أدوارها على أكمل وجه، هنالك المخرج.. نعم المخرج الذي قطَّع الفيديو وجهزه، ثم رفعه على صفحة الموقع ليأخذ حقه من الانتشار، حتى يصل عدد المشاهدات في بعض الأحيان إلى مليون ونيف.

قد يكون المخرج هكر ألكتروني، أو شاب حاقد على المجتمع، وصله المقطع بطريقة أو بأخرى. لعله عشق الفتاة من طرف واحد، أو إنها تركته وتزوجت غيره، فانتهز الفرصة ليفضحها، ولربما يكنُّ العداوة للشاب الذي يظهر معها. غالبًا ما تنتهي هذه الأفلام بإطلاقة نار على رأس الضحية الأنثى، أو يحكم القاضي على الشاب الذي غرر بالفتاة أو فصل عشائري ضخم يتم على أثره طرده مع أسرته إلى مدينة بعيدة.

لم يتوقف البحث عن الفضائح، سيما وفي كل يوم أكتشف المزيد منها، وفي كل مقطع صغير رواية طويلة ومأساة عظيمة. أشعل سيجارتي، وأحدق في شاشة الهاتف، لا يحركني إلا الطفو المتساقط في حجري، أزيحه ثم أعود لأدقق في وجوه النساء وأرثي لحالهن، وفي بعض الأحيان أتخيل نفسي واحدة منهن. ما إن يطرأ لي هذا الخيال حتى أنفض رأسي هاربة. لا أستطيع أن أفترض نفسي عارية هكذا أمام الملأ، يشاهدني كل من على وجه البسيطة.

تمنيت لو أرى سندس القحبة، عارية وتتلوى على سرير ساخن بين أحضانه، يصورها من حيث لا تدري فيفضحها ويفضح نفسه. كيف ستكون شماتتي بها؟ تلك العاهرة التي سرقت منير مني. كنا على وشك الخطوبة لولا أن تنساب بيننا مثل الحية الرقطاء، فرقت شملنا بعد أن خلبت لبه بنظراتها الوقحة وابتساماتها الصفراء. أجبرته على تركي وسط الطريق، لم يكلف نفسه حتى مؤونة الاعتذار أو الوداع. جعلته يلهث خلفها مثل الكلب السلوقي إذا ما طارد فريسته. لم يكن يعلم بأنه هو من كان طريدتها التي اصطادتها بصنارة عهرها.

لم يكن سهلًا علي استيعاب الأمر، ولم أستطع تجاوز الصدمة. لم أكابر كما يليق بالعاشقات المغدورات. دخلت معها في مشادة كلامية ليتني لم أفعلها. كنت ضعيفة ومغدورة في الصميم. مثلت

أمامي وأمام كل زميلاتنا في العمل دور المرأة المعشوقة التي يتهافت عليها خيرة الرجال. طفرت دمعاتي، بكيت، وبدوت أمام الجميع مثل العانس الرخيصة التي تتكالب على رجل لا يعيرها أي اهتمام. بعدها بشهر تزوج منير من سندس.

سمعت وشوشة مفادها بأن فضيحة جنسية طالت منيرًا، وإنه تداركها في اللحظات الأخيرة. لا أعلم لماذا طفقت أناملي تبحث فى النت عن تلك الفضيحة؟. أظنه صورها معه قبل الزواج أو بعده. إنه من النوع الذي يعشق توثيق لحظات الحب، إني أعرفه جيدا!

ما أجمل أن أرى سندس تتوسد صدره المشعر، وتمرر يدها على فتحة العملية في خاصرته، تلعق الوشم الذي يزين زنده. **ستكون فضيحة مدوية لهما معًا**. سأعمل على الترويج لها. ما إن أعثر عليها حتى أعيد نشرها مجددًا ليكونا عبرة لمن يعتبر. سأجعل من سندس نجمة الأفلام الإباحية الأولى في العالم. سأكتب على المقطع: «سندس ومنير يمارسان الجنس..». كلا.. عبارة عادية جدًا، أريدها جملة مؤثرة تتشبث بالمشاهد وتجبره على المتابعة. سوف أكتب: «شاهد واستمتع مع أحلى زوجين يمارسان أجمل علاقة حب». لا.. سوف أنشر المقطع بدون تعليق.

كانت جملة من الأفكار الخبيثة تتوقد في ذهني. ماذا تعني فضيحة امرأة عراقية على الإنترنت؟.. تعني أن أمها وأباها وأخوتها وأخواتها كلهم سوف يشاهدونها وهي!.. حسب المشهد المفضوح، قد تكون ترزح تحت وطأة كرش حبيبها، أو تمنح مؤخرتها للكاميرا فتظهر جلية أمامهم. هل يكملون المشهد أم يكتفون بالبدايات؟ ومن الذي يشاهد المقطع لأكثر من مرة؟ أعتقد أكثر من يزور المقطع بل يحمّله في جهازه ويشاهده عدة مرات، هو العشيق السابق للسنيورة، ذلك الذي أحبها من طرف واحد ولم تبادله العاطفة، إنه أكثر المشاهدين لفضيحتها، ما بين شامت بها ومتلذذ بفضيحتها، ومكتشف لخبايا جسدها الذي بخلت به عليه.

سوف يشاهد المقطع كذلك زملاؤها في العمل، يتبادلونه فيما بينهم، ولا ننسى الجيران وصديقات الدراسة والأقارب، كلهم سوف يشاهدون فضيحتها. لن تتخلص طوال عمرها، فأينما حلت تلاحقها الفضيحة، وكأنها حكم بالإعدام عليها!.. ألا لعنة الله عليها، وهل لها قدرة أن تعيش وسط العيون التي تخترقها كل يوم؟ لعمري إن انتحارها هو الحل الأمثل لها والخلاص من كل عذاباتها. إنه انتصار فضائي صارخ على تقاليد الأرض وأعرافها. **فهؤلاء الأرضيون سوف يتداولون الفيديو الفضائي، ويطلقون على أثره أحكامهم ورصاصهم أيضا.**

ولأن الفضيحة تستدعي انتحار الضحية، وجدتني أشد حماسًا في البحث عن مقطع فاضح لسندس ومنير، فمن أخبرتني أكدت لي الخبر، ولم تحدد مكانه. لم يجد بحثي نفعًا، وأيقنت بألا طائل وراءه، فتوقفت بعد أن مللت من مشاهدة فضائح بنات الناس.

ذات مساء، وبينما كنت جالسة مع أمي في صالة البيت، وأثناء انهماكها بموضوعها الأثير الذي لا تكف عنه يومًا، وهو الحديث عن والدي المرحوم، يتخلله دمعات تختط طريقها على أخاديد وجهها المتغضن بالهموم. أختي آمنة في غرفتها تواصل مذاكرتها استعدادًا للامتحانات النهائية في الجامعة، فيما تغيب أخي الضابط في واجب ليلي.

رن هاتفي المحمول برسالة مسنجر، فتحتها، الرسالة عبارة عن رابط لموقع إباحي. تبسمت وقلت في سري: «أصبح الدخول لهذه المواقع أمرًا مألوفًا». أُردف الرابط برسالة.

- **مساء الخير، اشلونك غادة؟**.

- **هلووو** حبيبتي.. مساء النور، كيفك؟.

- فضيحة منير التي كلمتك عنها.

تلبكت أصابعي، اضطربت دقات قلبي، نهضت، انسللت إلى غرفتي، جلست على السرير، دخلت على الرابط، فتحت الفيديو،

ترددت أنفاسي لهفة، في داخلي صوت يقول: «وأخيرًا يا سندس وقعتِ في الفخ، لن أرحمك».

اشتغل الفيديو، منير يرتدي سرواله الأحمر الشهير، شهير بالنسبة لي، فأنا أول من أنزعته إياه بيدي، وكثرما سخرت منه، حتى إنني سرقته خلسة وحرقته كي يستبدله بغيره. كانت جل سراويله حمراء وضيقة يظهر من خلفها الجنتلمان ضخما ومنتصبًا. منير يعشق اللون الأحمر ولأجله ارتديت ملابس داخلية حمراء، أتلفتها هي الأخرى بعد زواجه من الخاتونة! كان منير في المقطع يتمشى في غرفته التي أعرفها جيدا، يظهر لي سريره الخشبي المفرد، الشاهد الوحيد على خلواتنا. لعله ينتظر إطلالتها البهية، يبدو أن التصوير قديم بيد أن ملامحه بانت جلية لمن يعرفه. متى تدخل سندس؟ أتحرق شوقا لرؤيتها عارية. كيف يبدو جسمها؟ لن تفوقني برشاقتها، وسوف تفتضح سمنتها بعد أن يتحرر كرشها من مشد البطن. **بعد برهة انتظار**، دخلت بطلة الفيلم.. لا.. لا.. مستحيل! وضعت كفي على قلبي إثر خفقة مدوية. تمتمت بفزع:

- ولكن.. ولكن.. لا. لا.

يزداد تردد أنفاسي، عيناي تحدقان في الكارثة، لم يزل الموبايل في قبضة يدي، وفي حركة لا إرادية خبطته في صفحة الحائط. تناثرت أشلاؤه على الأرضية المرمرية، طارت البطارية قرب الباب،

تهشمت الشاشة، لم أزل ألهث، هل اختفى المقطع؟ تكسر الهاتف إلا أن المقطع لا يزال معلقا بين السماء والأرض، يحوم فوق بغداد، أو لربما يعلو الشارع الذي أقطنه، لعل أحدهم فتحه وبدأ بمشاهدته؟. من يكون هذا الشخص؟

- لا..لا.

تيبس ريقي، ابتلعته، أطرقت نحو خارطة الهاتف الملقاة تحتي، انحنيت إليها، كسرتها، وددت لو تحطم كل هذا العالم الافتراضي، أن تفني هذه الأشباح التي تحتل الفضاء، أن أحرقها كلها، أن أرسل عليها صواعق مدمرة تفتك بها. أود أن أعود إلى واقعي، إلى عالمي الجميل ذاك، عالم الهدوء والسكينة، آكل الخبز الأسود، أمضغ الزهدي مع الشاي المر عوضا عن السكر، حينما كنت أذهب إلى المدرسة إبان زمهرير البرد بلا معطف شتائي يدفيء عظامي المرتجفة. أتمنى العودة إلى غرفتنا المربعة في بيتنا الصغير، إذ المروحة تبث علي السموم لتجفف قطرات العرق المتفصد على جبهتي الصغيرة، حينما كنت أتمنى الماء البارد فلا أجده، وأسمع بالعصائر والمثلجات ولا أشربها.

تمنيت الرجوع إلى ذلك الهراء، فهو على أية حال خير لي من أن أخوض في كل هذا الخراء، خراء الأمريكان الذي أمطرونا به،

ولم تزل أمريكا تقرفص فوقنا وتتبرز كل قذارات الرأسمالية علينا وعلى أهلنا، حيث تتجمع أسوأ ما أنتجته العولمة في بلدنا. **ليتهم تركونا نتخمر بعبثية حزب** البعث، أن نأكل علف الخيول والطحين المخلوط بالحصاء والرمل، كله أهون مما أنا فيه، كله أهون من هذه الكارثة التي نزلت على رأسي.

هل أنا في حلم؟ لربما أحلم، وكل ما يحدث ليس حقيقة، نعم، إنه حلم، حلم.. إني نائمة، نائمة وسوف أستيقظ بعد قليل، لأجدني جالسة قرب أمي في فناء بيتنا القديم، تمشط شعرها المغسول، وتتزين بمرآة غير صقيلة، ترك الحصار أثره على وجهها الشاحب، ترتدي ثوبها الكودري الأصفر، وبقربها ترانزستور صغير أحمر كتبت على واجهته بالعربية «القيثارة» مستلهمين إرثنا التاريخي في الغناء والموسيقا، تشغله على أغنية لفنان جديد على الساحة، اسمه حاتم العراقي. كنت طفلة في الثامنة من عمري، تصفق لي مع الأغنية وتشجعني على الرقص، أهز لها وسطي فتضحك على شيطنتي. لم يكن يكدرنا لا هاتف نقال ولا فيس بوك، ولا مواقع إباحية أظهر فيها عارية للعيان.

– **اااااه.. يالها من كارثة.**

هل تجمد الهواء في الغرفة؟ أريد هواء، أريد أن أتنفس، سحبت نفسًا بكل ما أوتيت من قوة، استنشقت ما تبقى من أوكسجين، إني

أختنق، نهضت، اتجهت نحو ستاند خشبي ثبتت عليه قطعة قماش بيضاء، كنت قد رسمت عليها لوحة لم تكتمل، تحتها منضدة صغيرة، تفرقت عليها الألوان المائية، مع فرشاة رسم غمست في اللون الأزرق الفاتح، تظهر على قماشة اللوحة كفان نحاسيتان، ليستا بنعومة أكف المراهقات الصغيرات، ولا هما متغضنتان كأيدي العجائز. جعلتهما لامرأة في عقدها الرابع، تمسك اليمنى منهما بزهرة وردية، فيما ارتخت اليسرى للأسفل. يغطي الساعدين كمان مكشكشان فضفاضان، وفقا لأزياء أوروبا في بداية القرن العشرين.

كنت على وشك إنهائها هذا الأسبوع، بأن أضع لها وجها بملامح تشبهني، سيما وإنني تآلفت حد الاندماج مع صاحبة اللوحة، روزيتا بطلة مسرحية «لغة الزهور» للوركا. كنت قد أديت دورها إبان دراستي الإسبانية في الجامعة، حتى أن زميلاتي أطلقن علي اسمها، ولم يعدن يناديننني إلا به. أصبحتُ روزيتا العانس، كن يندهنني وهن ضاحكات، فأتلقى الاسم منهن بابتسامة من توحدت مع شخصيتها المفضلة.

أحببتها كامرأة محاصرة بتقاليد مجتمعية تتشابه إلى حد بعيد مع ما نعيشه في وقتنا الحاضر، إذ تقيد المرأة عندنا بأصفاد تكبلها وتمنع عنها حتى الابتسامة. توسطت الغرفة تحت المروحة السقفية، تطلعت إليها، رأيتها تغالب نفسها بما وسعها من جهد لتأخذ استحقاقها من الأمبيرات

المسحوبة من مولدة الكهرباء الأهلية، لتدور بحركة بطيئة تحرك جزئيات الهواء المتجمدة والتي أحسها تفر مني هاربة لتتركني هكذا أغرق. رحت أدور في غرفتي ما بين جدار أصدمه أو كرسي أتعثر به.

- هواء..هواء.

شهقت ملء أنفاسي، سحقتُ غطاء الهاتف الملقى تحتي، تكسر إثر الضغط، ليتني مت وتكسرت عظامي ولا أكمل بقية عمري بفضيحة مدوية، تتناقلها المواقع الإباحية وتشاهدها الأجيال تلو بعضها لعشرات السنين. بعد أربعين سنة، سيصبح عمري حينها ثمانية وستين، يأتي حفيد لعائلتنا، ويشاهد جدته وهي في عنفوان شبابها تمارس الرذيلة على سرير المتعة. أظنه سوف يعبث بي، فيشغله على مقربة مني، ثم ينساب رويدًا ويضع الشاشة أمامي، يسألني ببله:

- بيبي.. من تكون هذه؟. هل تعرفينها؟.

أضربه وأشتمه هو وأمه التي لم تحسن تربيته. ولعل أفضل الحلول أن أتجاهله وأتصنع الغفلة، أو الخرف المبكر. كيف سيكون حال المقطع بعد مئات أو آلاف السنين؟. سوف تجلس امرأة وحيدة على كرسيها الهزاز، تفتح النت وتشاهدني عارية مع منير، تبصق بوجهي، وتبحث عن فضيحة أخرى. سأكون حينها ميتة، لست عضامًا نخرة وإنما تراب. **لن أتأثر بما يقولونه بعد موتي.**

المشكلة الآن، ماذا لو عرف أهلي؟ أمي، أختي، أخي!. أخي الرائد رياض، اضطرب قلبي حالما خطر ببالي، وتفتق بذهني وجهه المحمر يقطر غضبا قانيا، بيده عصا غليظة ينهال بها علي رأسي. أختنق، أختنق. امتدت يدي إلى شعري، سحبت منه خصلة بعنف، قطعتها رغم الألم، خصلة أخرى وأخرى.. هواء.. أريد الهواء. مزقت قميص النوم، تقطعت الأزرار واحدًا إثر الآخر، ظهر الأتك الأحمر، يبرز من فتحته الواسعة نهدان متوثبان، شققت الدانتيلا بانتقام، فظهر صدري اللبني، مثلما يعرض في هذه اللحظة بالمجان ويحظى بالمزيد من المشاهدات. هرعت إلى الباب، أقفلته، نظرت إلى النافذة، درجت نحوها، أزحت الستارة، ماذا لو هربت من البيت؟ ولكن، إلى أين؟

- سأصعد إلى السطح!

لم لا ألقي بنفسي من فوق؟ سأسقط عارية، نظرت لجسدي بين شطري البيجامة المفتوحة، تحرر نهداي من أسارهما، فبرزا وسط فرجة الأتك الممزق. سيقولون تعرضت لحالة اغتصاب ثم انتحرت، وقد يتساءلون عن الذي اغتصبني من يكون، ويخمنون بأنه هو من ألقى بي من السطح.

- أوف. يقولون.. يقولون.. يقولون.

لعنة الله عليهم أجمعين وعلى هكذا مجتمعات متخلفة لا تكف عن الأقاويل وبث الإشاعات على أعراض العفيفات من النساء. المجتمع نفسه الذي حارب بطلة مسرحية الإسكافية العجيبة، ظل يتقول عليها ويشوه سمعتها حتى هجرها زوجها. رأسي يدور، ماذا يحدث؟ انبثقت روزيتا أمامي، تعتمر قبعة الفيدورا، صفراء مزينة بشرائط برتقالية، ثبتت عليها زهرة بيضاء، ترفل بفستان زهري ضيق طويل الأكمام، وجهها يشبهني، وكأنما هي أنا أثناء تأديتي لدورها على مسرح الكلية، خاطبتني برقة لا تخلو من لوم:

– لماذا يا أختيي؟ لماذا فعلت بنفسك هكذا يا غادة؟. لقد قضيت على مستقبلك، دمرت نفسك، أنت الآن في حكم الميتة، ميتة مع وقف التنفيذ كما حدث معي بالضبط. «لقد انتهى كل شيء، ومع ذلك، وبعد أن فقدت كل أمل، ولكل الآمال الضائعة أنام وأصحو، وأنا أحس بأشد المشاعر فضاعة، وهي مشاعر الآمال الميتة.» هل تتذكرين هذا المشهد يا غادة؟ ما إن تصلين إلى خاتمة مسرحية لغة الزهور حتى ينطلق صوتك صادحًا في الأرجاء، تنبعث الكلمات من أعماق قلبك، ترددينها بصوتك الرقيق ممزوج بغصة الألم. رددِيه يا غادة، رددي ما تحفظينه يا روزيتا.

إني لأجدك أشد محنة مني، ومأساتك أكثر فجيعة مما مررت به. لقد آلت بي الظروف لأن أكون في نظر المجتمع امرأة عانس. «ويقول أحدهم: ها هي العانس، وصبي وسيم ذو شعر مموج يعلق قائلًا: إنها لا تجد من يلقي لها بالًا. وأنا لا أستطيع أن أصرخ، ولا أملك إلا أن أسير وفمي مليء بالسم الزعاف». أنا صرت عانسًا، أما أنت فأصبحت في نظرهم، اسمحي لي أن أقول لك.. قحبة. صرخ صوت حاد لامرأة آخرى، ترتدي ثوبًا أحمر وحذاء ذا كعب عال. من؟.. آه، إنها الإسكافية العجيبة، أخذت تشتم روزيتا المسكينة بلسانها السليط:

– **ماذا دهاك يا امرأة، من أنت حتى تحكمي عليها بهكذا صفة، إنك تشبهين بحديثك هذا جاراتي المأفونات اللواتي كن سببًا في** هروب زوجي وهجرانه لي.

التفتت إلي، قالت بهدوء:

– **هوني عليك** يا غادة، لا عليك، لا تهتمي لتخرصاتهم، إنك أنقى منهم جميعًا، ولم تخطئي أبدًا، كنت عاشقة ووفية بعشقك، أحببت وتمتعت بحبيبك.

تنهدت بضيق ثم أردفت بحسرة:

- **إنك** أفضل حالًا مني، أنا التي ابتليت بزوج عجوز بائس، ليتني لم أقبل به. ومع ذلك، فعندما هجرني أصبحت وحيدة من دونه.

بكت بنهنهة، أخرجت منديلًا مطرزًا، مسحت دمعاتها، أكملت:

- **عيشي حياتك يا غادة، استمتعي بشبابك، لا تكترثي لما يقولون.**

قاطعتها روزيتا:

- **كيف لا تهتم** بما يقولون؟ هل تريدينها أن تكون سافلة مثلك؟.

ردت الإسكافية على الفور:

- **أنت السافلة أيتها العانس.**

ابتلعتها روزيتا بصمت ثم هتفت:

- **أنا عانس فعلًا**، وأرى نظرات الشفقة تلوح من أعينهم، ولكني محترمة، شريفة، خلوقة. هل تعرفين معنى الأخلاق أيتها السافلة. ما أنت إلا متهتكة بلا شرف وكل النساء يتحدثن عن فسوقك، أما الرجال فأنت بالنسبة لهم لحم شهي يتلمظون نهمًا لالتهامه. لقد صرت أغنية للأطفال في الشوارع أيتها الفاجرة.

حديث روزيتا يمزقني، وكأنها تعنيني، نكأ جرحي وانتظرت الرد أن يأتي من الإسكافية التي لم تخيب ظني فقالت بثقة أحسدها عليها:

- فليقولوا ما يقولون، لن أنصت لهم وسأعطيهم الأذن الصماء، أنا أشرف منهم جميعاً.

أجدني أقرب إلى الإسكافية مني إلى روزيتا، رغم شفافيتها التي تشابه شخصيتي، ولكنها مهزومة، ضعيفة، جد سلبية، وأنا أكره الانهزام. كم تعجبني الإسكافية، أعجبني تحديها رجعية المجتمع، وتحررها من ربقته. سأقف مثلها بوجه الجميع، سأقول لهم: نعم.. نعم، أنا التي أظهر لكم عارية مع ذلك الشاب. إنه حبيبي. لا، ليس حبيبي بل الوغد الذي عشقته ثم هجرني، وتزوج من امرأة أخرى. فلتزوجوني لشيخ مسن، سأعيش معه بقية عمري مثلما عاشت الإسكافية مع زوجها الذي أحبته في نهاية المسرحية. لن أهتم لأمي ولا لأخي. **هل قلت أخي؟. وهل أنا بالفعل قادرة على تحديه؟ قد لا يطيل الحديث معي، ولا يستخدم أساليبه في تعذيب المتهمين أثناء الاستجواب، إنه لذي أصابع م**حترفة في الضغط على زناد المسدس.

لم تزل الإسكافية العجيبة تسلق روزيتا بلهيب لسانها، وروزيتا ترد عليها بالسخرية اللاذعة. إنهما تتعاركان، صرخت فيهما: يكفي يكفي.

فتحت عيني، انقشع الغبش، جفلت حال رؤيتي لأخي رياض ببزته العسكرية، يشع وجهه الأبيض بابتسامة عريضة، برزت أسنانه

تحت شاربه الثخين، بيريته تغطي فروة رأسه الصغير، يلمع على يسارها شعار مذهب، وعلى كل كتف من منكبيه العريضين يحط نسر جمهورية العراق معلنًا عن رتبته. **تقف بجانبه أمي، يترقرق الدمع في مقلتيها، تجعد وجهها وذوى عودها. سمعت صوت أختي آمنة يأتي من الجهة الأخرى للسرير.**

- الحمد لله على سلامتك.

سقطت عيني على ندبة زرعتها شظية على جبهتها، ترتدي فستانًا أخضر غامقًا، يبرز استدارة صدرها، وترهل بطنها. **تهدل كمها** الأيمن ناطقًا بمأساة طفلة فقدت ذراعها أثناء ذهابها للمدرسة قبل عشرة أعوام. انحنت علي، قبلتني على جبيني، بكت، قال رياض:

- الحمد لله على سلامتك.

كررتها والدتي، تذكرت عريي قبل أن يغمى علي، حمدت الله إنهم ألبسوني ثوبًا عريضًا. ثمة كانيولا مثبتة في الوريد، موصلة بمغذي معلق على قضيب معدني. عيونهم تتساءل عما جرى لي، ونظرات المحقق رياض تستنطقني عن سبب تحطيم التلفون وتمزيق ملابسي، كأنه يشك بالأمر. لم يكونوا قد علموا بالفضيحة، ولكنهم سيعرفون بعد ثلاثة أشهر، حينها تحولت ابتسامة رياض إلى تكشيرة غضب دهم بها غرفتي، شدني من شعري بكفه الضخمة، جرجرني

من السرير سحلًا إلى صالة البيت، ركلني ببوز حذائه، فركه بوجهي فتمزقت جلدة وجنتي، سحق على رأسي، انهال علي ضربًا، استخدم معي كل فنون الركل، وبعدها سجنني في غرفتي. قيدني من خلاف لئلا أنتحر وأتسبب لهم بفضيحة أخرى.

قرر أن يتخلص مني على الطريقة القبلية، بطلقة في الرأس وينتهي كل شيء. توسلته أمي أن يعفو عني، ركعتْ تحته ومنعتْه من تنفيذ ما يدور في رأسه، تمنيتُ الموت ساعتها، وطلبتُ منه أن يتم عمله بتصفيتي. صدر الحكم أخيرًا بأن أبقى سجينة البيت مدى الحياة، فلا خروج إلا إلى القبر. قبلت الحكم صاغرة، فليس لمثلي أن تعترض. لأشكر الله أولًا على نعمة الهواء الذي سُمح لي بتنفسه. هكذا قالت لي أمي، وهذا ما قرأته في عيون آمنة. ليس لي من سبيل للانتقام إلا بطريقة واحدة، أن يكون احتجاجًا سلبيًا.

حكرت نفسي في غرفتي، ولم أخرج منها. **صمدت إزاء هذا القرار، واستجمعت كل قوتي لتحقيق ما عزمت عليه، لم أتزحزح خارج مستطيل الغرفة، وقد انتهى الخوف ولم أعد أخشى شيئًا.** فليذهبوا إلى الجحيم جميعًا. من هم؟. سألت نفسي، أجبتها: كل من يتسنى له رؤية فضيحتي، فليذهبوا إلى الجحيم كلهم. **سآخذ بنصيحة الإسكافية ولن أبالي بهم.** سوف أدمج الشخصيتين معا، الإسكافية

وروزيتا. سأتخذ من كل واحدة منهما خصلة، لأعيش بهما سوية. آخذ من الإسكافية تمردها، وعدم احترامها لكل شيء، ومن روزيتها سلبيتها، فأنزوي في غرفتي ولا أخرج منها. لن أجالس أحدًا، ذهبت سدى كل محاولات أمي وأختي للخروج من الغرفة إلى صالة البيت. لن أخرج من صومعتي، وسأنطوي على نفسي لأعيش بين المرايا.

صادقت مرآة البوفية الكبيرة ذات الإطار الخشبي، أقف أمامها ببيجامتي الخفيفة قصيرة الكمين، وسروال فوق الركبة، أحدق في وجهي المصفر وجسدي النحيل، أبتسم فتبرز أسناني الصغيرة تحت شفتين ذابلتين، قلوب الحب الحمراء تتفرق على القميص الأبيض، وكأني ورقة العشرة آس. أضع كفي على الخصرين وأقف متأهبة للعراك، ثم أسبل ذراعي على جنبي رافعة رأسي بشموخ، أولي المرآة ظهري حيث أظهر في مرآة أخرى ملتصقة بباب الدولاب، أصبح بين مرآتين، أرى ظهري أمامي، أزيح شعري عن قفاي، ثم أعيده، أبتسم، ثم أضحك على نفسي، أقهقه بصوت مسموع.

أدور في الغرفة حتى أتعب فأعود لأجلس على الكرسي الجلدي. أنظر إلى النافذة، أتذكر أنها مقفولة، وقد ألصق على زجاجها جلاد سميك يحجب الرؤيا. كي لا أكون مثل الإسكافية عندما تقف في شرفتها تغازل الرائح والغادي. لم أعد محل ثقة أهلي ليسمحوا لي بكوة تطل على العالم، حتى النت والهاتف المحمول منعا عني أيضًا.

لا يهم، لأفترض أني أعيش قبل عام 2003. فتحت الدولاب، تكة السجائر نفذ نصفها، أخرجت علبة منها، فضضتها، استللت سيجارة، أحرقتها بنار الولاعة، أضحك من نفسي ثم أفتح باب دولاب جانبي آخر، تكومت في قاعه محاضراتي الجامعية، كراسات صغيرة وسجلات كبيرة، امتلأت بالحبر الأزرق المكتوب بخط يدي، وكتب قواعد اللغة الإسبانية مع مسرحيات وروايات، بالإضافة لبعض دواوين الشعر مع أوراق مستنسخة. قرفصت وبدأت بتقليبها، أمسكت رواية المجنون لميغيل ديلييبس، مسحت غلافها بباطن كفي، وضعتها جانبًا، ثبت السيجارة بفمي، صفقت لأجلي الغبرة العالقة عن أصابعي، تحتها روايتان لخوسيه ثيلا، ثم تواترت الكتب المتربة، واحد إثر الآخر، أضعها جانبا وأكمل عملية البحث عن كنز ثمين يجب أن أعثر عليه، أزحت دون كيشوت وسكارميتا، وضعت رواية مئة عام من العزلة فوق ديوان نيرودا منزوع الغلاف.

ظللت أنقّب في قعر الدولاب حتى وجدتها أخيرًا. لقد وجدتها، نعم وجدتها، مسرحية عرس الدم. تركت الكتب متناثرة على الأرضية الرخامية المنحسرة عن السجادة. تربعت في جلستي، تأملت في لوحة الغلاف، عبارة عن سكين مخضب بالدم وامرأة ترفع ذراعيها كأنها قطعة الباكية في نصب الحرية. فتحته من المنتصف، قرأت:

«**سأنام دون أن تخيفني** بعد اليوم بندقية أو سكين.. لا أريد أن أرى أحدًا.. أنا والأرض وحسب.. أنا وأحزاني وهذه الجدران». أغلقت الكتاب، رددت:

– **هذا ما سأسهر عليه الليلة.. مسرحية عرس الدم.**

أطفأت السيجارة بالأرض، تنهدت بسعادة، أمسكت الكتاب باعتزاز، كأني أخشى مداهمة أخي للغرفة، ومنعه لي من قراءته. شرعت بإعادة قراءة المسرحية، وتساءلت مع نفسي، ماذا لو هربت مثلما فعلت العروس في هذه المسرحية؟ أين تكون وجهتي إن فعلتها؟ إلى مكان مجهول! كانت عروس مسرحية عرس الدم أكثر جرأة مني. كما أن الظروف قد ساعدتها أكثر، لأن عودة حبيبها أعطتها دفقا من الشجاعة، بررت الأمر بأن ذراعه انتزعتها كموجة طاغية جرتها جرًا عنيفًا. أما أنا فلم أزل وحيدة، فكيف لي أن أهرب وهذه النافذة أحكم قفلها، وسدت فتحاتها بشبك حديدي يشبه قضبان السجون؟

هربت البطلة في مسرحية لوركا واقتتل حبيبها وزوجها في معركة بالسكاكين، قتل أحدهما الآخر، قفلت راجعة إلى أهلها وقد خسرت الاثنين معًا. لن أخوض مغامرة أخرى، وهل تحتم علي أن أعيش بكل شخصيات لوركا؟ روزيتا.. الإسكافية، وأخيرًا عروس مسرحية عرس الدم. لقد أعارني هذا الاسباني أسوأ ما يملك، ودمر

حياتي بتلك المسرحيات. لوركا.. لوركا.. لوركا. كم أبغضك! ماذا تريد منا يا هذا؟ ألأننا احتللنا الأندلس فترة من الزمان أردت الانتقام؟ كتبتَ عن غرناطة أكثر من مدريد، وتغنيت بقصر الحمراء في قصائدك وكأنه إرثكم القومي. ثم أتيت أخيرا لتعيرني نساءك. أخذتهن عن طيب خاطر، فتلوثت سمعتي وانتهى أمري إلى هذا السجن الانفرادي، وعندما رفضت آخرهن، أتيتنا بشخصك، وبكل ثقلك، فأعرتنا نفسك.

منحت أخي الرائد رياض ميتة تشبه مقتلك، وجدار يماثل جدارك. اختطف رياض، وبعد يومين وجدنا جثته ملقاة قرب جدار مخرم بالرصاص. وبدلًا مني فإنك أهديت شخصية أم القتيل لأمي، فصارت تنوح على ابنها كما بكت الأم في مسرحيتك المشؤومة. طفقت تهذي مثلها، تكلم نفسها، تبكي ولدها مثلما بكت أم العريس على ابنها القتيل في صراع لأجل الثأر. لم أبك على أخي بقدر ما بكيت على أمي المفجوعة. وقفتُ وسط الصالة التي منعت نفسي عنها، تقتعد الجارات الأرض قرب أمي، يهدهدنها ويصبرن عليها، تجلس أختي على الكرسي ناكسة الرأس، تغطي وجهها بيدها الوحيدة، تنشج بصمت، أخذت أتمتم بصوت خفيض بما قالته الأم في مسرحية عرس الدم، ثم ارتفع صوتي، ارتفع لأعلى حتى

أن أختي رفعت عينيها متعجبة، كفت النسوة عن البكاء، حدجتني أمي بنظرة استفهام، صرختُ :»هل من أحد هنا؟..ابني.. لا بد أن يجيب.. هل من أحد هنا؟

ولكن ابني قد صار حمل ذراع من زهر جاف.. قد صار صوتًا خافتًا خلف الجبال.. الصمت.. **في هذا البيت لا أريد عويلًا**.. دموعكن من العبث فحسب، أما دموعي فتنهل عندما أكون وحيدة.. تنبع من أخمص قدمي.. تتدفق أحر من الجبال.. هنا أريد أن أكون.. هنا في هدوء».

تفاحة ماغريت

«لو أن المشاهد يرى في لوحاتي تحد للذوق السليم فهو محق، لكن بالنسبة لي العالم هو الذي لا يتمتع بذوق سليم»

رينيه ماغريت

نغمة المنبه تترنم بها سماعة الهاتف المجدول فوق الكومودينة، يخرج يده من تحت البطانية، يبحث عشوائيًا، أطراف أصابعه تتلمسه، يكابد بمشقة ليفتح عينيه، لم يزل الصوت صادحًا، يمسك الهاتف، يأتي به قابضًا، يخرسه، يستوي جالسًا، ينزل قدميه على الأرض، يمغط يديه، يتثاءب، ينهض، يمضي نحو الحمام، ثم يعود ويقف أمام المرآة المعلقة أعلى المغسلة البورسلانية، يفتح الصنبور، يبسط كفيه تحت الماء، يملأهما، يأخذ رغوة من الصابون، يطلي بها وجهه، يتساءل مع نفسه: ماذا لو اختفى هذا الوجه؟ ماذا لو أصبح بلا رأس؟ العراق بلد الرؤوس، وله تاريخ عريق معها، هنا تقطع الرؤوس، تفصل عن أجسادها بمديات حادة أو سيوف مشحوذة، يرفع الملثم الرأس المقطوع، يقطر دمًا، يهلل ويكبر.

ليس اليوم بل منذ قرون والرأس علامة مميزة للعراقيين. ليس بالضرورة أن يُرفع على قناة الرمح، لربما يُلعب به كرة قدم، إذ يتحول بقدرة قادر من رأس بشري يكمن فيه العقل والتفكير والمشاعر الإنسانية من حب وكره إلى كرة تركل بالأقدام. هذا هو العراق، بلد الرؤوس والنخيل. فالنخلة كذلك.. رأس. هي التي شمخت بعنفوان على مر العصور، حتى وإن ماتت تبقى شامخة برأسها. قيل عن العراق جمجمة العرب، فإذا ما قُطع تُحجب معه كل الأمة، فتضل طريقها.

أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. شعار طالما ردده إبان دراسته الابتدائية حتى أنهى الثانوية. تلاشى هذا الشعار وحلت بدلًا عنه شعارات أخر. الديمقراطية، والانتخابات. مع هذه المفاهيم الجديدة برزت أسئلة لم تكن في الحسبان. أيهما يفيد العراق أكثر النظام البرلماني أم الرئاسي؟ أجمع المحللون على أن النظام الرئاسي هو الأكثر ملاءمة، حيث تعطى للرئيس جل الصلاحيات، هو من يكون هرم السلطة ورأسها. العراق رأس فلن ينجح معه إلا النظام الرأسي.. أي الرئاسي. رفضه السياسيون لمصالحهم الخاصة، أجمعوا على محاصصة النظام البرلماني. ومعه، ضاع الرأس، وضاع العراق.

لم يزل وجهه مبيضًا من أثر الصابون، بوده لو اختفى، لو أنه حجب عن عيون الآخرين، لو أنه يخرج هكذا بلا ملامح، كم سيكون أفضل لو امحت كل الوجوه، عندها يتساوى الآدميون، ليس لأحد مزية على أحد. رش الماء على وجهه، كرر الفعل مرارًا، كأنه يروم أن يمحوه فعلًا، بلل شعره ونظف أسنانه، غطى رأسه بالمنشفة ثم آب إلى غرفته، يسعفه بصيص ضوء من خلف القماشة القطنية. افتقد زوجته، مذ طلقها وهو تائه في بيته. أبغض الحلال عند الله الطلاق، أكثر جملة سمعها قبل انفصاله عنها. لامه الكثيرون، واعتبروه متجنيًا عليها. ولغفلته أعطى هاتفها لوالدها، ولم يستبقيه

كشاهد ضدها. طالبه أهلها بمؤخر الصداق إن أراد طلاقها، ارتضى صاغرًا، فالقانون لا يحمي مغفلين.

دفع والده المبلغ نيابة عنه، فالأهم الفكاك من هذه النبتة السيئة بأسرع ما يمكن. غضب أخوه الكبير هاشم، وهدد بقتلها، استل مسدسه التوكاريف، وغمده في قرابه تحت القميص، كان عازما بالفعل على سفك دمها، لولا أن يلجمه أبوه. سحبه من ياخته وألقى به جانبًا حتى ارتطم بصفحة الحائط. حدجه بنظرة صاعقة ارتعدت لها فرائص هاشم وشلت حركته. والده مرتديًا دشداشة عريضة تتسع لجسده الضخم، وكوفية بيضاء يتوجها عقال مثبت لا يتزعزع من مكانه. كانت كوفيته خيمة تظلهم بفيئها، وتقيهم سموم هاجرة عراق ما بعد السقوط. سلك يده في ثنايا قميص هاشم وأخرج المسدس، قال له بصوت لا يخلو من أبوة:

- ما هي إلا قحبة.. ولا يستدعي الأمر أن تتهور يا حمار.

كان خجلًا منهما معًا، ومن أمه وأخواته الثلاث، أحس بنفسه ديوثًا، ترك زوجته تستهتر به وبشرف العائلة. سارع أبوه بإجراءات الطلاق، فحضروا المحكمة ولم يكن قد رآها منذ اكتشاف أمرها. كم مضى من الوقت؟ قليل في عداد الأيام والأسابيع، ودهر في حساباته، شهران كأنهما العمر كله. رآها تتلفلف بالعباءة، يغطي رأسها خمار أسود، عاطلة

عن الزينة، كأنها ثكلى في يوم عزاء. جلست بمعية أمها على كراس بلاستيكية حزمت مع بعضها بشكل أفقي. كان يجلس غير بعيد عنها، يرنو إليها، ذبلت نضرتها. ما إن التفتت جانبا حتى التقت عيناهما، أشاحت بوجهها. إنها تعلم بفداحة جرمها، نهض، وبلا شعور تقدم نحوها، وقف قبالتها، لم تتحرك، رفعت رأسها إليه، شهقت كالخائفة، سألها:

- لماذا؟.

دمعت عيناها، احمر وجهها، همت بالحديث، إلا أنها ألجمت عن النطق، أطبقت شفتيها، فيما تحدرت منها دمعة على وجنتها، لم تكفكفها، أطرقت خجلًا، نطقت أمها بما لم يميزه، ضوضاء الموقف يشوش على سمعه، رجع إلى مكانه، قلبه يضطرب كحبل واهن يهتز في قعر بئر عميقة. صبر على نفسه، وأتم الطلاق. لم يلتفت خلفه، فقد انتهى كل شيء. أصبح بعدها لا يعرف كيف يدير شؤونه. فتح الدولاب، ملابسه معلقة بواسطة علاليق ثبتت على خشبة اسطوانية، وقعت عيناه على قميص أحمر، أخرجه، أدخل ذراعه في كمه ثم أردف الأخرى، سواه على كتفيه، اختار سترة نيلية وبنطال رصاصي، سيكون منظره مدهشا بهذه الألوان المتباينة. قد يسخرون منه في الدائرة، وقد يتضاحكن عليه الموظفات بوصفه مجنونا، ولكن.. لا يهم، كلنا نعيش في عالم من الجنون.

مذ جاءت أمريكا ونحن في سكرة لم نصحُ منها بعد، وإلا من يصدق بأن رئيس جمهورية العراق صدام حسين يخرجونه من حفرة ويضعونه في قفص ثم يحاكم ويعدم. قلبت الدبابة الأمريكية كل الموازين، وتحولنا من حالة الغثيان إبان الحصار إلى متاهة لا نعرف أين منها نحن. أسقطوا التمثال في ساحة الفردوس، ونصبوا محله آلاف التماثيل المشابهة. فلن يلومه أحد على هذه الألوان التي رصع بها نفسه.

وقف خلف البوفية ذات المرآة الكبيرة، حدق بها، أمسك المشط، مسد شعره، وجهه متغير هذا الصباح، خاله وقد تحول إلى اللون الأخضر، فأصبح كما الأموات، ماذا لو استعاض عن وجهه بتفاحة خضراء؟ تبسم، سيبدو وسيمًا بلا شك. كثر ما تكررت أمامه لوحة عالمية في بعض الأفلام السينمائية التي اعتاد مشاهدتها، لوحة أثارت إعجابه حد الافتتان، لرجل يرتدي معطفًا أسود وقبعة بولر سوداء مستديرة، وربطة عنق حمراء، يقف أمام سور حجري قصير، ومن خلفه يبدو البحر والسماء ملبدة بالغيوم. أهم ما أثار انتباهه وجه الرجل، الذي اختفى خلف تفاحة خضراء. ما الذي يرمي إليه مبدع تلك اللوحة؟ ما ترمز إليه التفاحة؟ يجب أن أسأل فنانة الدائرة غادة، سأجد عندها الجواب الشافي.

خرج من غرفته إلى الصالة المهملة، ذرات الرمل الناعمة تكتسي القنفات، وتغطي الطاولة الصاجية، كما اعتلى الغبار زجاج لوحة مؤطرة لغليون كبير.

قطته الشيرازية تنام في الزاوية، اتسخت فروتها وساءت حالتها، قربها طبق بما تبقى من خبز منقع بالحليب. مسح حذاءه بمنديل أبيض رقيق، شتم طليقته الغائبة وخرج غضبان، يتمشى إلى مكان عمله القريب نسبيًا، فقد اضطر أن يبيع سيارته بعد خسارة ثقيلة ألمت بهم. أية هزة تلك التي زلزلت الأرض من تحتهم، فأطاحت بالهرم المالي لأبيه، وأنزلته من علياء التجارة والمقاولات إلى حضيض الديون وجشع المرابين. لم يكن أبوه ليرتكب خطأ يودي به، بيد أن قوانين الدولة هي التي أدت إلى إفلاسه.

لأول مرة في تاريخ الحكومات تحتال الدولة على المواطن. بعد أن أنجز مشروعين كبيرين بمئات الملايين، سوفت البنوك الحكومية في مواعيدها بحجة التقشف، ولم يمنحوه المال الكافي لسد أفواه الدائنين، فتركوه مقيدًا لشبكة من المخادعين. فقد والده كل شيء، ولم يعد يراه إلا غاضبًا مزمجرًا، يتأفف حينًا، ويكيل عليهم اللعنات حينًا آخر، يتمنى الموت جهرة فلا يجيئه، وهو الذي تعلم منه الصبر عند المحن، ولكن أية قشة يتشبث بها إذ يرى نفسه بلا حول ولا قوة.

وقف في مكتب الشركة ذي الأثاث الفخم، خلع كوفيته، ظهر شعره الأشيب، فتح أزرة الدشداشة، سحب هواء، وزفره، شرع يحدث نفسه بصوته الغليظ:

- ليس الذنب ذنبي، الدولة هي التي نصبت علي، ليس لي ذنب.

تمتد أصابعه لتسمح الرغاء عن شفتيه، يعاود التنغيم مرة أخرى، وبعد أن يتعب من الكلام، يصمت، يغادر المكتب إلى البيت، فلا يخرج منه، ثم يتخذ قراره بوجوب إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لملموا كل ما بحوزتهم من مدخرات، ليست كافية لتسديد الكم المتراكم من الديون، لم يكن أبوه بذكاء الآخرين الذين ثبتوا أموالهم في عقارات لا تموت. كل سيولته ذهبت في مهب الريح. بقي من المبالغ المطالبين بدفعها خمسون مليون دينار، اضطر أن يبيع سيارته وكذلك فعل هاشم ووالده أيضًا. لم يسلموا إلا على بيوتهم. كل هذا الخسران بسبب روتين ممل وأخطاء إدارية وبلد يرفع الرجل إلى هام السحاب ثم لا يلبث أن يطيح به من قمته الشاهقة.

تحولات سريعة مروا بها ولم يفقهوا منها شيئًا. قبل الاحتلال لم يكن بمحفظتهم مئة دولار، وبعد بضع سنين ربحوا مئات الآلاف منها، وبقدرة قادر تبخر كل شيء مثل فقاعة ارتفعت لبرهة وسرعان ما اختفت. صار لزامًا عليه الاعتماد على نفسه والسعي حثيثًا للبحث

عن وظيفة. تعد التعيينات الحكومية من أكثر غرائب العراق إضحاكًا حتى أن المرء ليقف مشدوها إزاء ما يشاهده من عجائب. فالمستشار القانوني خريج كلية الهندسة، والمحاسب خريج كلية قانون، مدرس الفيزياء يتم تعيينه مرشدًا اجتماعيًا، فيما يعين خريج علم النفس أمين مكتبة في مدرسة خالية من المكتبة.

باعة جوالون شدت لهم أعلى الرتب وتوسموا النياشين العسكرية بمراسيم جمهورية، تسنموا قيادة القوات المسلحة ليصبح الابن العشريني عقيد ركن والأب العجوز ملازم بنجمة واحدة. كأن الحكومة فقدت تركيزها أمام هذا الكم الهائل من الخريجين فاختلط عليها الأمر وراحت تضرب أخماسا بأسداس. ومما يزيد الطين بلة عدم وجود قطاع خاص يرأب صدع البطالة. وهو.. أين موقعه وسط هذا التل من الشهادات؟ وكيف يتسنى له الحصول على حقه في الوظيفة بشهادة كلية الآداب التي أضحت بحد ذاتها مشكلة؟ تبرأت منها وزارة التربية، ولم تعترف بها بقية الوزارات.

ضل خريجوها طريق التعيين، وشرعوا يتخبطون بلا هدى، يقرعون أبوابًا سدت في وجوههم، ويقتحمون نوافذ بطرق غير قانونية. لم يتصور نفسه يومًا أن يندم على دخول هذه الكلية وهذا القسم. كان يفتخر بأنه خريج كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية. نعم،

فهي مما يتباهى به، كيف انحدر بها الوضع إلى هذه الدرجة؟ وكيف هبطت كلية طه حسين إلى هذا الدرك؟ عليه أن ينقب عن ثغرة ينفذ من خلالها فقد ولج بعض من زملائه في سم الخياط وتعينوا في وظائف لا تمت لتخصصهم بصلة.

أما هو فقد شرع يبحث عن تعيين يناسب اختصاصه سيما أن وزارة التربية أقرت إدخال اللغة الفرنسية ضمن المناهج الدراسية لبعض المدارس المركزية. هذا ما حفزه أن يأخذ مستمسكاته الأربعة الشهيرة مضافًا إليها وثيقة التخرج حال سماعه بإطلاق درجات وظيفية على ملاك وزارة التربية. تأبط ملفًا ذا واجهة شفافة وخلفية برتقالية، وذهب يحدوه الأمل إلى مديرية التربية، وقف في طابور طويل بانتظار الدور. وبعد أكثر من ساعة وجد نفسه أمام لجنة استقبال المعاملات، ثلاثة موظفين خلف طاولة معدنية، متأنقين بأبهى حللهم من سترات كلاسيكية وربطات عنق متقنة، تبدت على وجوههم المتجهمة آثار سنين في العمل التربوي، وبدا عليهم الانهماك في تدقيق الأوراق وفرزها.

أعطى معاملته لأوسطهم جلوسًا، شيخ ستيني، ذو شعر أبيض ممسد إلى اليمين، تناثر جزؤه الأيسر كسنابل قطن عصفت بها الريح، تساقطت مقدمته فأصبحت جبهته أعرض مما يجب. استلم

الملف، حدق في وثيقة التخرج، حدجه بنظرة حانية خلف نظارة رقيقة، ابتسمت ملامحه الوديعة، وقال بصوت مبحوح:

- هل أنت خريج كلية الآداب؟.

تيبس ريقه، ابتلعه ثم أجاب بنعم. أطبق على الملف، طواه، مده نحوه وقال بأسف:

- ابني.. أرجو أن تعذرنا، فأنتم غير مشمولين بالتعيينات.

خلع نظارته، مسح زجاجها بخرقة فاقعة الصفرة، خيط أحمر رقيق يتوسط بياض أحدى عينيه، كانت أصغر من الأخرى، لربما يرى بواحدة فحسب، وأطفأ الزمن العين الثانية. حاجباه مختلطان ببعضهما، غضون جبهته العريضة تشكل طبقات تعلو بعضها. يقرأ في تجاعيد وجهه عشرات الأوامر الوزارية منذ تشكيل الدولة العراقية حتى هذا اليوم، كل قرار يجب ما قبله.

لم يفاجأ برفض المعاملة، فهذا ما توقعه، ولكنه أراد أن يعيش اللحظة، ويستذوق طعم الطرد، فمرارة المظلومية لا تخلو من لذة لا يعرف سرها. قال برجاء:

- ولكن لماذا؟. كلية الآداب لا تختلف عن كلية التربية في شيء.

أغمض الرجل عينيه ولم يقل شيئًا بانتظار انصرافه، تسمر في مكانه، قال موظف جالس على اليمين، ذو شعر أسود ووجه صاف

نمقه بإتقان، فبدا أصغر من صاحبيه، ثخين الشارب حليق اللحية على نمط رجالات الزمن البائد.

- أخي.. كلية الآداب تعتبر كلية ساندة، وهذا الأمر معمول به منذ السبعينات.

غلي الدم في عروقه، فهتف به غاضبًا:

- **وهل أنتم ملزمون** بتطبيق كل قرارات حزب البعث؟

ضرب على الطاولة، ارتج المكان، صمت الجميع، تراجع الموظف خلف سترته ذات الياخة العريضة، أكمل صياحه بوجوههم:

- طيب.. عندي لكم مقترح يفيدكم.

يتبدى الخوف على سحناتهم، يرتعبون في صمتهم.

- لم لا تطبقون قرار البعثيين بإعدام الأحزاب المعارضة له وأولها حزبكم الذي وضعكم في موضع المسؤولية أيها المحترمون؟

سحب معاملته، وتركهم ينظرون لبعضهم ذاهلين.

أيقن بألا مكان لكلية الآداب في العراق الجديد، نصحه هاشم أن يقدم على مديرية البلدية بعد إعلانها عن وظائف شاغرة لحملة شهادة السادس إعدادي. لم يغير الملف البرتقالي، سوى وثيقة التخرج، نزع البكالوريوس واستبدلها بالإعدادية. بعدها بشهر

نُشرت الأسماء المقبولة. كان أخوه قد توسط لدى مدير عام الدائرة المتنفذ ووعده خيرًا. ذهب حيث تُلصق قوائم المقبولين على الجدار كأنها المعلقات السبع، ثمة جمهرة من الرجال والنساء تتحرك أعناقهم أثناء قراءة الأسماء في صعود وهبوط يكللها وجل وخشوع كالمتعبدين أمام حائط المبكى.

يرنو ببرود إلى الأسماء المكتوبة بخط يدوي رديء، لمح اسمه في إحداها: سليم عبد الله ماضي. لم يبتهج، تلبسه إحباط شديد، استسلم للقدر المحتوم بأن يبدأ حياته موظف درجة ثامنة بمرتب ثلاثمائة وخمسين ألف دينار، ضحك بيأس ثم هتف ساخرًا:

- **يحيا العدل، تحيا الحكو**مة، فلتحيا أمريكا محررة الشعوب!

ترمقه عيون الواقفين بجانبه، منهم من يضحك ومنهم من يحسبه مجنونًا، همهمة تصدر خلفه، سمع صوتًا نسائيًا:

- **هذا أكيد مخبل.**

أجابها أحد الشبان:

- **أصبح المجانين أكثر من المتسولين.**

قال آخر:

- **الشعب فقد صوابه.**

رد الشاب بقصد إضحاك الفتاة:

- هذا كله بسبب الكهرباء.

ضحكت، وسايرها الحاضرون بالقهقهة، استمر الشاب بالزحف على تلك الفتاة بإطلاق النكات التافهة. هم أن يلتفت إليه ويهينه أمامها، ولكنه آثر الانسحاب بهدوء بعد أن صار مادة لتندرهم. لا ملامة على ذلك الشاب السخيف، حالة الزحف واللطلطة أصبحت من بديهيات عراق ما بعد السقوط.

عليه ألا يأتي بذكر شهادة الكلية، أن ينساها مثلما نسي مفردات اللغة الفرنسية. خير لشهادته أن تبقى حبيسة إطار نحاسي، معلقة قرب لوحة لغليون كبير أخذت حيزًا لا بأس به من الحائط. كتب أسفلها بالفرنسية: هذا ليس غليونًا. إنه بالفعل ليس غليونًا حقيقيًا، مجرد لوحة مثل شهادة تخرجه، ليست شهادة بل ورقة، فالشهادة الحقيقية هي التي يترتب عليها نتائج التخرج كالتعيين على الأقل، أما أن تجرد من كافة أسلحتها وتظل هكذا معلقة لا هي إلى السماء ولا هي إلى الأرض، فليس له إلا أن يقول: هذه ليست بكالوريوس.

حتى صورته بروب التخرج الجامعي، والابتسامة تملأ وجهه، وقد تشبثت يمناه بورقة مطوية بين أصابعه، حري به أن يكتب تحتها: هذا ليس خريجًا. ولا ينسى صورته الممزقة مع طليقته،

لو كان يعلم لكتب تحتها أيضًا: هذا ليس عريسًا. ألا توجد حقيقة في هذا العالم البائس؟ كله وهم في وهم. ليس هناك ما يستحق أن يوليه اهتمامًا، فكل شيء زائل. ليمضي في طريقه المعتاد غير آبه بنظرات الاستهجان التي ترمقه بها عيون المارة فتعريه من ملابسه الغير متناسقة الألوان. إنه مقتنع بما يرتدي، ليس بالضرورة موافقة الآخرين على كل ما يريدون، إرضاء الناس غاية لا تدرك.

نسمات آذار تشرح صدره، تضفي على شفتيه ابتسامة بلهاء، ثمة طالبات سافرات متجهات إلى مدارسهن، يتبعهن ثلاث نساء محجبات ورابعة منقبة، لا تُظهر إلا عينيها. ليت كل النساء منقبات، ليست أمنية دينية بقدر ما سيكون لجمالهن المخبأ خلف النقاب قيمة أكثر لما يثيره من فضول لدى الرجال والنساء على حد سواء. لم يهتم لتلكم الفتيات السافرات، ولا للمحجبات المكتفيات بغطاء الرأس بقدر ما استبد به الفضول لمعرفة شكل هذه المنقبة كيف يكون؟

وصل الدائرة، دخل الباب المفضي إلى الإدارة، وقع في سجل الحضور، انسل إلى مكتبه في قسم توزيع الأراضي. ألفى رئيس القسم جالسًا يحتسي الشاي، بقربه زميله يشغل جهاز الحاسوب، فيما فرغ مكان الآنسة غادة. حياهما وجلس خلف مكتبه، لم ينتبه أي منهما لملابسه. فتح الدرج، أخرج بضعة أوراق وشرع بترتيبها ليبدأ عمل يوم جديد.

كل الموظفين متشابهون، ليس بأشكالهم بل برتابة حياتهم، فلا جديد لديهم سوى تغير روزنامة الأيام والشهور، وموت ملايين الخلايا في أجسادهم المتجهة نحو الشيخوخة بسرعة عجيبة. إنه قطار الزمن ولا سبيل لإيقافه، يدهم عليه حياته دون استئذان. صفن متفكرًا، قطار.. زمن..زمن.. قطار. أين رأى هذا؟. هل كانت محض فكرة خطرت بباله أم أن لها مكانًا في ذاكرته المفعمة بالصور. آه.. صحيح، تذكرت. ثمة لوحة رأيتها لقاطرة تطلق دخانها وهي تدهم بشكل مخيف غرفة طعام فارغة، ووجود ساعة تشير إلى استمرار الزمن.

أينكِ يا غادة لأسألك عن هذه اللوحات التي حيرتني بغموضها.

ما إن تذكرها حتى دخلت بابتسامة مشعة ترتسم على شفتيها المطليتين باللون الزهري. بنطالها الأسود ضيق عند الخصر، يبرز تفاصيل فخذيها المكتنزتين، ثم ينحدر مهفهفًا على الساقين، حشر تحته قميص أصفر بكمين طويلين التصقا بذراعين صقيلتين تنتهيان بكفين صغيرتين ذواتا أصابع نحيفة مقصوصة الأظافر، إنها يد رسامة بلا شك، وليست من تلك الأيادي البضة للنساء الفارغات. جلست على الكرسي المحاذي لمكتبه، أخرجت من حقيبتها مرآة دائرية، نظرت بها، عاينت جرحًا ناغرًا في وجنتها، نفخت خدها، تحسسته بأنملها، ثم أرجعتها، شعرها القصير ملموم إلى الخلف، بدت أذنها

البيضوية ذات القرط الدائري. بشرتها البيضاء وأنفها الأغريقي يمنحانها جمالًا فينوسيًا.

أطلق زفرة حرى، ثم انهمك في أوراقه، وذهنه يسترجع أول يوم له في الدوام، استغرب حينها لهجتها البغدادية، وملبسها المتحرر وسط مجتمع جنوبي متحجر. ظنها متزوجة من أحد أبناء الناصرية، ولكنه فوجيء بأنها تسكن لوحدها في شقة بإحدى عمارات شارع الحبوبي. **لعلها تحمل على عاتقها قصة أليمة كما هو حادث لكل العراقيات المترعات بحكايات ألف ليلة وليلة. ولكن شكلها مألوف لديه، سبق له أن رآها، هكذا تساءل في بداية تعيينه ووجوده معها على كرسيين متجاورين. قال في نفسه، سأنتظر اللحظة** المناسبة ثم أسألها. وليته لم يسألها!

استمر مكبًا على ما بين يديه حتى أتم عمله في غضون ساعة، نهض واقفًا بغية تحريك جسمه المنهك، طقطق عظامه. حرك جذعه يمينًا ويسارًا، ألقى عليها نظرة. **رمقته ثم أطلقت ضحكة رنانة لم يعرف سببها، انتبه الآخران، أشارت بإصبعها إليه:**

- ما هذا يا استاذ سليم؟.

أجابها ببله:

- ماذا؟.

- **ملابسك.. أحمر على أزرق على رمادي.**

ضحكوا جميعًا، وشاركهم الضحك، أضافت:

- **تبدو اليوم في منتهى السريالية.**

اقتعد الكرسي، انتظر انتهاء موجة التعليقات، أراد أن يهزأ بها على طريقته بادعاء الجهل، توجه إليها بالسؤال:

- **ماذا تقصدين بأني في منتهى السريالية؟.**

افترت شفتاها عن ابتسامة مغرية، أجابت:

- **إنما قصدت عدم التنسيق في ألوان ملابسك. فهي مزية كانت لدى السرياليين.**

سهمت بعينيها الصغيرتين كأنها تستجمع أفكارها، ثم أضافت:

- **لهذا نرى في بعض اللوحات كثيرًا** من الفوضى، أشياء مربكة وغير منطقية ولا واقعية.. بمعنى فوق واقعية.

ما إن جاءت على ذكر اللوحات حتى خطر له أن يسألها عن تلك اللوحة التي عجز عن فك رموزها، بيد أنها استطردت بالحديث عن الرسم السريالي وعلاقته بالعقل الباطن واللا شعور. ذكرت له أسماء يعرفها وأخرى لم يسمع بها من قبل، اضطر أن يقاطعها برفع كف مفرودة وضع كفه الأخرى فوقها بشكل أفقي.

- نقطة نظام ست غادة.

وما هذا الشكل من إيقاف سيل المتحدثين إلا أسلوب فريد وناجع على النمط الغربي الديمقراطي لكي تُلجم أفواه المزبدين من أصحاب الخطب العصماء الذين يرومون تحويل المجلس النيابي إلى منبر لخطبهم الرنانة، وليس للآخرين إلا أن يخرسوهم بنقطة نظام، فيتذكر هؤلاء الثرثارون أنهم في مؤسسة ديمقراطية تقوم على التصويت برفع الأيادي وليس باستلهام الموروث البلاغي للعرب الأولين. فلا وقت للتلويح بالعصا ولا للهتاف اسمعوا وعوا. لا وقت لرفع الأصوات على طريقة قس ابن ساعدة، فنحن في زمن ما بعد الحداثة ولسنا في سوق عكاظ.

بعد أن أسكتها بنقطة نظام وجه إليها سؤالًا حول تلك اللوحة المحيرة، رفعت حاجبيها.

- إنها لوحة «ابن الإنسان».

- لا أعلم إن كانت هي أم غيرها.

- بل هي نفسها.

نهضت، أولته ظهرها، بدت مؤخرتها تتمايل بإغراء مع خطواتها المتجهة نحو براد الماء، صبت لنفسها، شربت بالكوب الحديدي،

عرضت عليه الماء، اعتذر بأنه ليس عطشان. جلست، أخرجت علبة السجائر من حقيبتها، أشعلت واحدة بـقداحة فضية، أخذت نفسًا، ثم أكملت:

- إن اللوحة التي سألتني عنها للفنان البلجيكي ماغريت.

اتسعت حدقتاها ثم أضافت بصوت أعلى:

- إنه أهم السرياليين، بل هو مؤسس لمدرسة سريالية مستقلة تختلف عما دعا لها سلفادور دالي.

التزم الصمت، أردفت:

- تعد لوحة «ابن الإنسان» أهم ما رسمه رينيه ماغريت.

- وأين هي الآن؟ في أي متحف عالمي؟.

- ليست في متحف، وإنما بحوزة أحد الأثرياء من هواة امتلاك اللوحات الثمينة. وقد أودعها في بيته ولم يسمح بعرضها للعلن.

كم يحسد هذا الثري على ما اقتناه، ليته يملك ملايين الدولارات، لبحث عن مالكها واشتراها بأغلى الأثمان، حتى وإن رفض، سيستعين بمسدس كاتم للصوت ثم يقوم بسرقتها، فاللوحة السريالية لا تشترى إلا بطريقة سريالية.

شفتاها الشهوانيتان تتحركان، تشرحان أسرار اللوحة:

– **إن اختفاء** وجه الرجل يبعث بداخلنا الفضول، مما يدل على أن كل شيء نراه يخفي خلفه شيئًا آخر. العين في نظر ماغريت ذات بعد واحد، فهي ليست أكثر من مرآة مزيفة.

سألها وكأنها تقمصت روح ماغريت وعرفت كل ما يرمي إليه في تلك اللوحة:

– **والتفاحة؟.. لماذا تفاحة وليست أي شيء آخر؟.**

تلمظت، ثم انطلقت بالإجابة:

– **التفاحة ترمز إلى خطيئة آدم التي استمرت عبر العصور حتى وصلت لرجل القرن العشرين. وتظل أمام وجوهنا نحن البشر تذكرنا بما نقترفه من خطايا.**

قال مجاملًا:

– **تفسيرك جميل للوحة.**

– **ولكنه لا يرضي ماغريت الذي صرح بأن تفسير لوحاته يخفف عنها الغموض.**

صمتا سويًا، طلب منها رئيس القسم بعض البيانات، ناولتها إياه، ثم عادت إليه لتكمل حديثًا أعجبها.

– **كلما تأملت في هذه اللوحة، قدحت برأسي أسئلة كثيرة، اخترعت لها إجابات من خيالي.**

- مثلًا؟.

- الرجل في اللوحة. زر الزرين العلويين من المعطف، وأهمل الثالث السفلي. لماذا؟ هل من سبب لذلك؟ هل نسيه، أم كان مستعجلًا؟ أظنه رجل بوهيمي لا يأبه بأناقته قدر اهتمامه بأمور أجل وأهم.

- تفسرين اللوحة حسب ما ترغبين.

ضحكت ملء فمها، فظهرت لثتها العلوية التي تبرز نفسها دائمًا.

- أهم ما يريد ماغريت أن يقوله هو ما ذكرته أنت.

- .....

- يعتقد بأننا لا نرى سوى انعكاس أنفسنا. وأظنني رأيت نفسي في جزئية الزر المفتوح من المعطف.

مجت نفسًا عميقًا من السيجارة ثم نفثت الدخان أمامها وأضافت:

- هناك شيء آخر لفت انتباهي.. إنه إخفاء الرجل ليده اليسرى خلف ظهره. هل يخفي بها شيئًا؟.. لا أعلم.

هنا قرر أن يماحكها.

- أعتقد بأنه لم يكن يريد أيًا من كل هذه الرموز التي شرحتيها، ولا يتقصد أي تفسير. كل ما في الأمر أنه أراد أن يرسم لوحة سريالية مخالفة للمألوف، فخطر له أن يغطي الوجه بتفاحة خضراء.

أسقط في يدها، همت أن تجيب لولا مقاطعة رئيس القسم.

- اتركا عنكما حوارات الفن. أكملا هذه القوائم. المدير يريدها اليوم.

انتهى الحوار بينهما بلا خاتمة، وكأنها نهاية مفتوحة لفيلم سينمائي غامض. اقترب موعد الدوام من نهايته، غادة في مكانها تقلب هاتفها، رئيس القسم يتحدث مع زميله الآخر، اختلس منها نظرة، وجنتاها غير ممتلئتين، جبهتها صغيرة، عيناها تكادان تختفيان لضيقهما، بياضها اللبني يزيدها إشراقًا، التفتت نحوه، أمسكته متلبسًا بالتلصص، تسمرت نظرته عليها بانتظار ما تقول، ناولته هاتفها النقال ذا التفاحة المعضوضة، بلا كفر مزكرش ولا صورة لدبدوب صغير أو أرنب، كانت بهاتفها رجلًا بامتياز.

- تصفح هذه اللوحات، إنها لماغريت.

أخذه منها، لسعته كهربة حال إمساكه، كاد أن يسقط منه، كأنه يقبض على جمرة فتحرقه، ارتبك، لم يقلبه، ظهرت له أول لوحة لعشيقين يتبادلان القبل، وقد غطى كل منهما رأسه بوشاح أبيض، أظلمت الشاشة، لم يعرف ما يفعل، قلبه ناحيتها، قالت:

- افتحه.

ابتسمت ثم أردفت:

- أنا لا أضع قفلا لجهازي.

فتحه بجرة من إصبعه، برد الجهاز في يده، لم يعد يلسعه، قلب اللوحات، ظهرت له امرأة ترتدي فستانًا أبيض وتعتمر قبعة بيضاء كبيرة، على كتفها حقيبة بيضاء، بيد أن ما لفت انتباهه وجهها المغطى بوردة بنفسج، صورة أخرى لرجل وامرأة موليًا كل واحد منهما ظهره للآخر، غطيا رأسيهما بوشاح واحد، صورة قطار يقتحم مكتبًا، وعلى الطاولة ساعة بمنبه، استمر بتقليب اللوحات، ثمة واحدة توقف عندها، تظهر رجلًا من الخلف يرتدي ملابس البرجوازيين من قبعة ومعطف، يتأمل في السماء، وفي جانبها الأيمن نسخة مقصوصة منه تشف عن غيوم متفرقة. لوحات أخرى طالعته، تعجب لكثرة الوجوه الغائبة، رفع رأسه عن الجهاز، سألها باستنكار:

- **ما باله يرسهم هكذا؟**.

صمتت بانتظار الإيضاح. أتم:

- **يرسم الأشخاص بلا وجوه؟**.

سألها وقد تذكر رغبته صباحًا أن تختفي تقاطيع وجهه، وأن يكون الناس كلهم بلا وجوه، لقد حقق ماغريت رغبته في المساواة، المساواة أو ربما الهدم، هدم الإنسان وسحقه حتى اختفت ملامحه تحت وقع آلة الحرب، وما نتج عنها من خراب. «ابن الإنسان» ذو الخطيئة يمحي شخصيات أخوته من بني آدم، ويجعلهم أدوات لديه، يسيرهم كيفما يشاء. جاءه الجواب دراميًا:

- **يقولون بأن السبب هو انتحار والدته.**

تجهم متعجبًا، أكملت:

- **انتحرت والدته بأن ألقت نفسها في النهر، عندما كان رينيه ماغريت** طفلًا. رآها ميتة وقد غطى ثوبها كل وجهها.

- بمعنى أن السبب نفسي؟.

- **بالضبط.. له علاقة بالعقل الباطن.**

- **بالفعل.. العقل الباطن المنبع الرئيس للسريالية.**

قالت بمزاح:

- **يبدو أنك استوعبت المحاضرة جيدًا.**

ضحكا معًا، وكان هذا آخر حوار دار بينهما قبيل المغادرة، وها هو يمضي إلى بيته، قدماه تقودانه بلا شعور، تسيران على الرصيف في درب ألفتاه منذ خمسة أشهر، لم يتغير طريقه من وإلى بيته، بيد أن ذهنه اليوم مشغول بهذا الرسام المدهش. كم أعجبته فكرة التفاحة ووضعها أمام الوجه دلالة الخطيئة. لو كان ماغريت عراقيًا، ويعيش بيننا، كيف ستكون لوحاته؟ وإذا ما أراد أن يرسم لوحة ابن الإنسان، ما هو الزي الأنسب للرجل ذي الخطيئة.

لربما جعله يرتدي دشداشة ويشماغًا أزرق، ويعتمر كوفية وعقالًا عربيين، وما خطيئته إلا كونه أساء انتخاب ممثليه في الحكومة،

وفضل النخوة العشائرية على مصلحة الوطن. أو لعل ماغريت يجعل الرجل بملابس رجال الدين، مستبدلًا قبعته البولر بعمامة بيضاء، وبدلًا من المعطف يلبسه الصاية العراقية، والعباءة العربية، وقد يضع في يده حقيبة دبلوماسية لتميزه عن رجال الدين الوقورين الذين لم تلوثهم السياسة.

ستكون التفاحة الخضراء بحجم أكبر، بحيث تغطي كل وجهه، لأن خطيئته قد أعمته تمامًا. ولعله يرفع الجدار الذي خلفه إلى أعلى اللوحة، حتى يحجب عنه كل ما حوله، كما يحجبون أنفسهم خلف جدران عالية في المنطقة الخضراء، هربًا من غضب الجماهير. ومن يعلم، قد يرسم المنطقة الخضراء على شكل تفاحة.

هل يكتفي ماغريت بذلك؟ لا.. سوف يرسم موظفًا بملابس مدنية ويضع التفاحة أمام وجهه، فالرجل هو الموظف الفاسد المرتشي، أو المهمل الذي يتقاعس عن أداء مهامه بضمير حي، وقد يكون مدير دائرة من هؤلاء الفاسدين الذين نصبتهم أحزابهم مدراء ومسؤولين، كما هو حاصل مع مدير دائرته الذي جيء به من موظف درجة سابعة إلى منصب مدير عام. لو قيض لماغريت أن يرسم المدير، كيف يكون؟. سوف يرسمه كما هو، بلا زيادة أو نقصان، بطوله الفارع، وجسده الضخم، وكرشه المتهدل، وقد يستعيض عن التفاحة ببطيخة أمام وجهه، فرأسه الكبير لا تحجبه تفاحة ماغريت الصغيرة.

لماغريت خيال واسع، وطاقة هائلة. كان يرسم في كل يوم لوحة على حد قول غادة. لذا فإنه يرسم كل هاتيك الوجوه المحجوبة لكراهيتها، وفي كل يوم مثال وأنموذج سيئ لمن نهبوا البلد وخربوه. قد يرسم لوحة لإرهابي يرتدي السواد، من قميص عريض وسروال فضفاض يحشر أسفله في بسطال عسكري، ويتمترس بدرع فولاذي. يغطي وجهه بتفاحة حمراء قانية اللون تدل على كثرة الدم المسفوح على يديه. لن تكون ذراعاه مسبلتين، بل يتنكب بندقيته، وتظهر لحيته المسترسلة تحت التفاحة، كما يتهدل شعره الطويل على كتفيه.

لقد شطح بتفكيره بعيدًا، حتى كاد يرتطم بعمود إنارة، انتبه لطريقه، حث خطاه، ثمة كلب أمام أحد البيوت، مربوط بسلسلة حديدية، ينبح عليه بلا هوادة، شرع يدمدم بخفوت:

- ماذا تريد مني؟ يا كلب يا ابن الكلب.

ازداد نباحه، وارتفعت وتيرته، كأنه يرد الشتيمة عليه: **إذا كنت أنا كلب ابن كلب، فما أنت إلا إنسان «ابن الإنسان». وصل بيته، عاد إلى صالته المتربة، تأفف متذمرًا.**

- عدنا والعود أغبر.

استبدل ملابسه، دلف إلى المطبخ، أشعل النار، أخرج القدر من الثلاجة، وضعه فوق العين الملتهبة، تناول صحن معدني، شرع يغسله، همهم مع نفسه:

- وجود المرأة في البيت ضرورة لا مناص منها.

لو كانت غادة زوجته، تبسم، قال في سره: لن يتغير شيء، لجاءت معي ورجلها على رجلي، تدخل هي إلى الحمام لتستحم، فيما أجدني هنا في المطبخ أسخن الغداء، كما يحدث الآن. غادة امرأة متمردة، لا ترضخ لجبروت الرجال، وما عزوفها عن الزواج إلا بسبب سخطها على الهيمنة الذكورية.

أم ماغريت تدخل هي الأخرى في دائرة التمرد، ولو لم تكن كذلك لما انتحرت. تبادر سؤال إلى ذهنه، لماذا انتحرت؟ ما السبب الذي يدفع امرأة للانتحار وترك طفلها بلا أم؟ هل كانت عاشقة؟ بمعنى خائنة لزوجها؟ لو كان الأمر كذلك لهربت مع عشيقها. إذن؟ لعلها تعاني من عصاب نفسي. عليه ألا ينسى بأنها عاشت بداية القرن العشرين ولم تكن النساء في أوروبا قد أخذن كامل حقوقهن في التحرر. لربما عانت من كبت اجتماعي أو حرمان جنسي فآثرت الهروب بالانتحار كما يحدث لنساء كثيرات في مجتمعنا، ولن يجدن أفضل من النهر مأوى لهن يلقين به حمم غضبهن ويأسهن. سريالية هي الأخرى تعاني منها المرأة العراقية، فتدفعها للانتحار.

تشمم رائحة احتراق، تراها الكهرباء قد أعطبت، يا الله، إنه قدر الرز! هرع نحوه، أطفأه، ثم شرع يسكبه في الصحن، قطته تموء من تحته، أنزل إليها ما تبقى من الأكل، تبسم، خاطبها:

– **أمورك** تمام.. تأكلين من رأس القدر، حالك مثل حال أعضاء البرلمان.

تناول غداءه على مضض، ثم مضى إلى غرفته. تمدد على السرير الوثير، وسادته من الريش، سقف ثانوي تنبثق منه مصابيح صغيرة، رفاهية لم تكن متوفرة لديهم إبان حزب البعث، بيد أنه لا يزال ينقصهم الكثير. تنقصهم الواقعية، حياته اليوم كلها فوق واقعية كما تقول غادة. وما هذا التلفون الذي بيده إلا دليل على ذلك. فتحه فطالعته صفحة الجوجل، كتب على الفور: ماغريت. ظهرت له الكثير من الخيارات، فتح الويكيبيديا، وجد له سيرة مختصرة. كم تثير فضوله حياة هذا الفنان، ولادته، منهجه الفني، انتحار والدته، تأثير ذلك الانتحار على لوحاته، هل كان متقصدًا أن يغطي وجوه الأشخاص، أم بدافع لا شعوري. كتب مرة أخرى: لوحات ماغريت، ظهرت له عشرات اللوحات.

– **آه.. ماهذه؟ إنها لوحة «هذا ليس غليونًا»**.

جورنيكا في الناصرية

«العالم بلا معنى، لماذا تريدون مني أن أرسم لوحات ذات معنى؟»

بابلو بيكاسو

- **يتهيأ** لي أن رأيتك مسبقًا.. ولكن لا أعلم أين بالضبط؟

قالها فيما أنمله تعبث بأذنه، فدهمني بسؤاله الأحمق مثل بلدوزر يجرف غابة من الورد، هكذا بلا مقدمات، كمن يلقي حملًا أثقل كاهلة. خفق قلبي حتى أحسسته يخرج من بين أضلعي ولما اصطدم بالقفص الصدري سقط أسفل واستقر عند قدمي اليسرى. لو شُق جلدي بمبضع جراح أهوج لما خرجت مني قطرة دم. خفت لدرجة أنني لم أستطع النطق، وطافت بذهني بلبلة رجرجت استقرارًا طارئًا حسبته يدوم. استقرار وهدوء مع راحة بال وجدتها في هذه المدينة الجنوبية الوادعة، حيث انتقلت إليها منذ عام، حينما وضعت والدتي أمام الأمر الواقع، وجئت لها بأمر النقل الإداري. نفذت ما دار بخلدي من وجوب ترك بغداد إلى الأبد، فليس لي مقام فيها.

كنت قد رجعت للعمل في الوزارة مثخنة بجراحات الفضيحة. ظننت نفسي أمتلك من القوة ما يساعدني على الوقوف بوجه كل من يضايقني بنظرة أو همسة، وعولت على مساندة زميلاتي في الدوام، بيد أن ما وجدته كان أقسى مما أحتمل. ألفيت نفسي منبوذة مثل جرباء تقرح جلدها، تهربن مني ولم يطلن سلامهن علي، مما يدل على رغبة صارمة منهن في المحافظة على سمعتهن. أصبحن كلهن شريفات عفيفات يتحاشين الاقتراب مني حتى أكلتني الحرقة وذرتني فتيتا.

انتقل منير إلى بلدية الرصافة، وبقيت زوجته اللعينة تطاردني بنظراتها الحاقدة، ليس لها حق علي، فما رأته من فضيحة لي مع زوجها كانت قبل اقترانها به، ولكن الأمر شكل لهما مشكلة بالطبع، مشكلة بسيطة تم حلها. أما أنا فقد صرت في نظرهم شيئًا آخر، استشففت هذا الأمر حينما دعاني رئيس القسم إلى مكتبه بعد رجوعي بيومين، ذهبت إليه، وعلى رأسي تنتصب علامة استفهام كبيرة، أحسست بأن وراء هذا الاستدعاء أمرًا جللًا.

وصلت لمكتبه في نهاية الممر، كُتب على الباب بخط نحاسي: **رئيس القسم. طرقته بإصبعي ثم أنزلت الأكرة وفتحته، دخلت، افترت شفتاه بخبث تحت شارب خفيف، وقفت قبالته، رحب بي بحرارة وطلب مني الجلوس على كرسي جانبي. كنت وجلة مما تخبئه ابتسامته الصفراء، ش**رع يحدثني عن الحريات العامة والخاصة، وكيف أن الأمريكان منحونا ما لم نكن نحلم به من قبل. أثنى عليهم وقال:

- **بالنسبة لي.. نذرت خروفً**ا على أرواح عائلة بوش.. من الأول حتى الأخير.

ضحك بسماجة ثم أكمل:

- **تستحق** جماعة العم سام أن تذبح لهم النذور. أليس ذلك؟

قلت بتململ:

- **نعم**.

استمر يثرثر حول الحرية الفردية، وإنه من حق أي فرد بالمجتمع أن يمارس طقوسه مع من يحبهم، أحياء كانوا أو أموات. كما عرج على حقوق المرأة المسلوبة وما تتعرض له من مظلومية يسومها إياها الرجل المتخلف. ظللت صامتة بانتظار ما تتمخض عنه هذه المقدمة الطويلة، رفع هاتفه الخليوي الملقى على سطح المكتب، كأنه يهم بأمر ما، تراجع عنه وأعاده إلى مكانه، نظر نحوي، ثم أتم حديثه:

- **بصراحة يا ست غادة، في رأيي.. للمرأة حقوق كثيرة لم تنلها مطلقًا**.. مثلًا.

خزرني بطرف عينه، أضاف وعيناه تتمركزان علي بثقة:

- **حرية الجسد.. معظم النساء في الواقع لا يمتلكن الحق في ممارسة حقوقهن في**..

صمت.. كأنه يبحث عن المفردة الأقل وطأة، أظنه لم يجدها، فقال بكل صلافة:

- **أقصد.. إن للمرأة حقًا** مسلوبًا في ممارسة الجنس.

اتسعت ابتسامته التي بدت مرتبكة.

- للمرأة حق في أن تمارس الجنس متى شاءت، فهذا جسدها وعليها أن تتصالح معه.

فهمت مقصده، ووصلت الفكرة، أحسسته قزم يتصاغر حتى اختفى، لم أعد أراه، كأن الدنيا أظلمت، لا أسمع ما يتفوه به، انتابتني رغبة جامحة للبكاء، أن أخلو إلى نفسي، أذرف كل ما يهتاج بداخلي من شجن. أمسك القلم، اقتطع ورقة من قصاصات في علبة مربعة صغيرة، سجل عليها رقم هاتفه، مد يده نحوي لآخذ الرقم منه، تركت كفه ممدودة في الهواء، نهضت، أوليته ظهري، خرجت من المكتب بخطو سريع، تباطأ رويدًا في الممر، غبش الدموع المغرورقة يضبب الرؤية، رجعت لمكتبي وسط حشد من المراجعين، ثمة قوة عارمة تدفع بي للبكاء، تمالكت نفسي، لم أستطع المقاومة، رفعت كفي علها توقف هذا الدفق الهائل من الألم، سددت بها فمي، لم تجد نفعًا بعد أن انبجست عيوني دمعًا سخيًا، حدث الانهيار وأطلقت للبكاء العنان.

تواتر الاستفزاز مرارًا، وفي كل يوم أجدني مشتعلة من الحرقة جراء نظرة ساخطة تخزرني بها إحداهن أو كلمة ناشزة تُلقى على مسامعي من أحد الزملاء الأفاضل، الزملاء الذين أخرجوا ما تخبئه نفوسهم من عصبية قبلية. سلقوني بألسنة حداد، فأصبح اللون

الأزرق دلالة على فضيحتي مع منير التي انتشرت على الموقع الأزرق، أجزم أنهم يتابعونه بلا استثناء، رجال ونساء. وما يزيدني ألمًا أنهم بأجمعهم فاسدون، وإذا ما تحدثوا عن الشرف يرفعون عقيراتهم بإطالة وإسهاب.

أشد ما آلمني تلك الحركة السخيفة التي فعلها أحد التافهين وهو الذي سبق أن صددته بعدما حاول التقرب مني، وكأنه خبأها لي، وما إن وقعتُ وكثرت على جسدي المنهك الطعنات جاء ليشفي غليله أثناء دخولي الوزارة متجهة إلى المكتب، رأيته آتيًا ناحيتي، ولسبب أجهله نظرت إليه، فما كان منه إلا أن يلوي شفتيه ويهز رأسًا أسفًا على هذه المسكينة التي تلوثت ومُرغ أنفها بالتراب. كانت حركته البسيطة تلك بمثابة القشة التي قصمت ظهري. مذ تلك اللحظة عرفت بألا مقام لي هنا، وعلي أن أهرب من هذا المحيط، أن أهجر المكان الذي جعل نكرة مثل هذا القرد يسخر مني. وبالفعل.. قدمت الطلب وتم لي الهرب.

انتقلتُ إلى الناصرية، لأعمل في البلدية بغير اختصاصي السابق، استأجرت شقة، حشوتها بأثاث بسيط، قررت أن أنسى كل ما يمت للماضي بصلة، وأن أبدأ حياة جديدة، حتى أنني طرأت علي فكرة تغيير اسمي، ولا ضير من تغيير الشكل أيضًا. ماذا لو أجريت عملية

تجميل لأنفي؟ كلا.. أنفي جميل الشكل، وليس من العقل العبث به. أريد أن أكون إنسانة جديدة غير تلك التي احترقت في بغداد، وهذا ما حصل، مسحت ذاكرتي، وحذفت منها كل ذكرى أليمة، انفتحت على الزملاء الجدد، أسبغهم بابتسامة بغدادية، أغمرهم بها بالتساوي، فلا أمنح أحدهم أوسع من غيره. آنست بهم وأحبوني، إلا أن سليمًا جاء هذا الصباح وبلبلني بحجارة غبية كسرت هشاشة الزجاج الذي أحتمي به. سؤاله جعلني أرد عليه بانفعال:

- **وأين تكون قد رأيتني مثلًا؟**.

تلعثم، وقبل أن يجيب أردفتُ بحدة أكثر تركته مصدومًا:

- **رجاء أستاذ سليم.. اترك عنك هذه الدروب الضيقة وإلا..**

صمت، ثم نهض مغادرًا المكتب الذي كان فارغًا إلا مننا نحن الاثنين. **عدت متفكرة بسؤاله، أين يمكن له أن رآني؟** تراه ممن يشاهدون الموقع الأزرق؟ وهل ثمة رجل في الدائرة لا يشاهده؟ إذن؟ هل علموا بفضيحتي؟ هل شاهدوني عارية ألبط كالسمكة تحت جسد منير؟ هل شاهدني سليم بأم عينه؟ اااااه.. الهواء.. أريد نسمة هواء.. يا إلهي.. **مستحيل. إلى أيـ**ن المفر؟ ومن يجزم بأنهم عرفوني؟ هل كنت واضحة المعالم في المقطع؟ لا جواب لدي، حيث إني لم أشاهده كاملا. **هل أبحث عنه في النت؟ أبحث عن أي**

شيء؟.. عن فضيحتي!؟ هل كانت ملامحي واضحة في التصوير؟ هل اقتربت العدسة من وجهي؟ لو أنهم يعلمون بالمقطع لأسمعوني كلمات تشي بمعرفتهم، ولكنهم صم بكم عمي لا يعلمون.

أناس بسطاء لا أعدم عندهم صفاء الريف ونقائه، ولا أظنهم يبحثون عن هذه المواقع الدنسة، ولكنهم رجال ومحرومون، فما الذي يكف أيديهم عن كتابة كلمتين في الجوجل؟ كلمتان فحسب كفيلتان بجلب أجمل جميلات الكون أمام أنظارهم وهن عاريات، ومع استمرار البحث والتنقيب في المواقع قد أظهر لهم فجأة ربي كما خلقتني. لا..لا. ما هي إلا وسوسة تشتتني، من المؤكد أنهم لا يعلمون عني شيئًا، ولو كانوا يعلمون لأصبح اللون الأزرق سمة بارزة في تعليقاتهم المتطايرة بينهم. مثلما حصل معي في بغداد:

- متى مباراة نادي الطلبة؟

- اليوم يلعب الأزرق.

- ما هو أكبر حيوان في العالم؟

- إنه الحوت الأزرق.

- ما معنى كلمة بلو توث؟

- الناب الأزرق.

- ما أجمل فيلم شاهدتموه؟

- أزرق..أزرق

هكذا كانوا يتراشقون بالأسئلة والأجوبة، لا لشيء سوى النيل مني.

رجعت لشقتي يعتصرني الألم، ومما زادني ضيقًا أنني قسوت على سليم. لو أنه تقصد إغاظتي بسؤاله لما احمر وجهه خجلًا، ولما غادرني صامتًا، جلست في الشرفة، نظرت أسفل من بين الدرابزين الحديدي، تتتابع السيارات في سيرها الوئيد، حافلة صغيرة تتبعها شاحنة متوسطة، ثم سيارتا أجرة صفراوان. امرأة تتلفع بعباءتها تروم عبور الشارع المزدحم، ليتني كنت مكانها، لألقيت بنفسي تحت الإطارات لتدهسني بلا رأفة. تناهت لسمعي أبواق السيارات وضجيج الباعة الجوالين. عيون الشبان المتسكعين ترمقني بنهم، لن أهتم بهم، إنما أريد نسمة هواء بدلًا من الجو الخانق في الشقة الضيقة. قلت في سريرتي:

- لا بد أن أعتذر لسليم يوم غد.

كأن أصابعي تروم الإفلات، قبضت كفي ثم بسطتها، ثمة طاريء خفي يعصف بي، يدفعني إلى فرشاة الرسم، نهضت أبحث عنها،

فتشت في أدراج الخزانة، وبين نمنماتي على الرفوف، فتحت حقيبة سوداء كبيرة ملقاة في زاوية الصالة، وجدتها مع باقي الأدوات، أمسكتها، تفرست بها مليًا، كأنها تهتز في يدي، تروم الذهاب إلى ميدانها المفضل، لتخضب بياض القماشة بألوانها، قدحت بذهني فكرة، أن أرسم.. نعم، فقد مضى أكثر من عام على آخر لوحة. ولكن.. ماذا أرسم؟

هل أعود لثيمة الموت والإرهاب؟ ما الضير في ذلك؟ فهذا هو واقعنا الذي نعيشه، ألم يرسم بيكاسو عن جحيم الحرب في أثره الخالد جورنيكا. أصبح العراق كله عبارة عن جورنيكا متشظية، جورنيكا حمراء تختلف عن تلك التي رسمها بيكاسو بالأزرق والأسود. لم لا أرسم لوحة تحاكيها أجسد فيها مشهد الموت؟

وهكذا بدأت، وضعت القماشة على ستاند الرسم، وطفقت أخطط للوحة المرتقبة، شرعت أرسم بكل ما أوتيت من موهبة، كأن أنامل بيكاسو تتحرك بين أصابعي، كأنها هي من ترسم بدلًا عني، بيكاسو الذي صرخ بوجه تجار الحروب وقال لهم: كفى.. كفى حربًا.. كفى دمارًا.. كفى تقتيلًا للأبرياء. إليكم هذه الجورنيكا وشاهدوا بأم أعينكم ما فعلتم أيها الأوغاد. أشعر بأنامله تتحرك بكفي، ترسم ما كنت عاجزة عنه.

رسمت نخلة باسقة عصفت بها شظية فكسرتها، انحنى جذعها المستقيم كمتعبد ناكسًا رأسه أسفل، يسبِّح بحمد بربه العظيم. لم أرسم لوحتي بتكعيبيته الشهيرة، ولا بسرياليته التي رسم بها جورنيكاه، ولكني رسمت سريالية حاضرنا بكل واقعية.

كان الحصان رمزًا للشعب في جورنيكا بيكاسو، أما أنا فتمثل لي الشعب بالنخلة، وما انحناؤها إلا رمز للركوع أثناء التعبد، وكذلك يحتمل تأويلًا بانكسار الظهر وقلة الحيلة. رسم بيكاسو مصباحًا في لوحته أما أنا فأتيت بالشمس اللاهبة وجعلتها متوهجة، تدمدم بحممها الساخطة على الرؤوس لتسجرها في أتون تموزية مستعرة، الشمس التي ترمز للحرية أضحت لهبا يحرق كل من تسطع فوقه. ليس هذا فحسب، فقد جئت بالجندي كما فعل بيكاسو حينما أسقطه على الأرض برمزية واضحة للهزيمة، بيد أني أوقفته على قدميه، ووضعت في يده راية يرفرف عليها علم العراق.

خططت اللوحة التي سأطلق عليها اسم جورنيكا العراق. ولِم لا يكون جورنيكا في بغداد؟ وهل الجورنيكا في بغداد وحدها؟ بالطبع لا، الدمار يطال العراق برمته، ليس المهم اسم اللوحة، الأهم تجسيد الدمار الذي يضاهي دمار الحرب الإسبانية، ويفوقها أضعافًا.

أنهيت تخطيط اللوحة، دلفت لأنام، لاح لي سليم، تأففت.

- يا له من مسكين.

نمت على هذه الكلمة، وصحوت على نية الاعتذار منه. في صباح اليوم التالي، جهزت الكليشة الملائمة، وتحضرت لاعتذار مشوب بكبرياء الأنثى، فليس من داع للإلحاح، ويكفى أن أختصر الأمر في جملتين بسيطتين.

دخلت المكتب، ألقيت السلام، لم يرد، إذن فالرجل يحمل في دخيلته عتبًا، لن أكلمه، لأنتظر ريثما يفرغ المكتب. بعد دقائق وقبل أن تسنح لي الفرصة المناسبة، لملم حوائجه وغادر، لم يعد ذلك اليوم ولا الذي يليه، عرفت أنه طلب إجازة لنهاية الأسبوع، وهذا يعني الانتظار ليوم الأحد. لم أستطع الصبر، أخذت رقم هاتفه من زميله على نية الإتصال به، بيد أني وجدتني وبلا مقدمات أراسله مساء على الوات ساب.

- مساؤو.

- مساء النور.. أهلًا.

- كيفك؟

- الحمد لله.

- معنوياتك.. انشالله منيح؟

تقصدت أن أحدثه بطفولية لهجة الشام ونعومتها. أجابني بجدية تختلف عن روح الدلع التي ابتدأته بها:

- **بخير.. ولكن بصراحة ما عرفتك أخي.**

- **قل أختي.. لأني بنت.**

- **عذرًا** أختي.

- **عذرك مقبول** أستاذ سليم.

صمت، لم يجب، لعله يتساءل عمن أكون، لن أثقل عليه. غيرت لهجتي للعراقية:

- **ولكنك هماتين لازم تقبل اعتذاري.. آني والله كولش ضايجة لأن انته زعلان مني.**

- **لحظة**.. لحظة. غير أعرف منو أنت بالأول؟

- **ماعرفتني؟.. آني غادة.**

سكت، لم يكتب شيئًا، خشيت أن يحظرني، اتصلت عليه صوتيًا.

- **مساء الخير** أستاذ سليم.

- **مساء النور.**

اعتذرت له بكلمات لم أتحضر لها، عللت خطئي معه بنفسيتي المتعبة، وأن ما صدر مني كان نتيجة ظروف خاصة. تفهمني بكياسة، وبرر كلامه بإحساسه الفعلي بأنه قد رآني مسبقًا، إلى أن فاجأني بقوله:

- **أنا درست في بغداد، فلربما التقينا هناك.**

- أين درست؟

- كلية الآداب، قسم اللغة الفرنسية.

أخبرني بظروف تعيينه، وبرغبته ألا يعلم أحد بحقيقة شهادته التي يخفي أمرها تجنبًا للسخرية، فالرجل حساس ولا يطيق تهكم التافهين.

- **إني أوفر حظًا** منك، عندما كنت في الوزارة عملت في قسم ترجمة العقود.

- وهل تبرم العقود باللغة الإسبانية؟

- كلا بالطبع.. كلها باللغة الانجليزية، بيد أني عملت بشهادة اللغة الإسبانية.. كل شيء ممكن في العراق بلد العجائب.

- بالفعل.. إنه العراق الجديد.

ضحكنا سوية، ثم أردفت:

- أما الآن.. فكلانا في قسم الأراضي، يعني في الهوا سوا.

ضحك ملء قلبه، لا أعلم كيف استمر الاتصال بيننا لساعة، رغم إني ابتدأته للاعتذار منه بكلمتين. أغلقت الجهاز وذهبت للمرسم، وبدأت الرسم بشهية. وعلى العكس من بيكاسو الذي جعل من النور رمزًا للأمل، فإني آثرت أن يكون الكلب الأسود رمزًا للمستقبل

الكئيب. الكلب يحمل بندقية، يلف جسده بحزام ناسف، يسير على جثث ملقاة لأطفال مقطعي الأوصال.

أرسم وأحدث نفسي أن أشرح مضمون هذه اللوحة لسليم يوم الأحد، سأحدثه عنها وعن كيفية رسمها. سبق لي أن حدثته عن هذه اللوحة، وهي الأولى لي في الناصرية، وعلي أن أضع فيها ما يشي بمكان رسمها، كأن يكون تمثال الحبوبي أو الشيباني، أو القيثارة التي كانت تتوسط ساحة سميت باسمها، وقد أزاحتها جرافات ما بعد السقوط جراء إشاعة بأن سجناء سياسيين ألقي بهم في قبو تحتها، حفروا المكان ولم يجدوا سوى خرافات لا ترقى لأن تكون أساطير.

سأستعيد القيثارة وأجعلها تعزف للموت لحنها الحزين. سبق لبيكاسو أن رسم لوحاته في إسبانيا، فجاءت زرقاء تماثل كآبة الحياة هناك. إسبانيا بلد بلا ألوان حينها، كما هي حال مدينة الناصرية. **حتى أنت يا بيكاسو تحتقرني وترسم باللون الأزرق المقيت، قد أكرهك أنت أيضًا**، سأرسم الناصرية باللون الأحمر، فالشمس هنا حمراء محرقة، والعراق بأجمعه اصطبغ بالأحمر الدموي.

أجمل ما في سليم إجادته للاستماع، فإذا ما استطردت في حديث ما أصاخ بسمعه مصغيًا لثرثراتي، لا يقاطعني حتى أنتهي، ثم يبدأ بمناقشتي، كأنه مسجل حفظ كل ما أتفوه به، أعجبني أسلوبه الهادىء

أثناء الحوار، يعترض دون أن يخطئني، ويدلي برأيه لا على أنه حقيقة مطلقة بقدر ما هو نسبي يخضع للخطأ والصواب. رغم التقارب الحاصل إلا أنني أبقيت على مسافة تفصل بيننا. مسافة حرصت عليها حتى اقترب عيد الحب، وعيد الحب يعد من أهم تمظهرات عراق ما بعد 2003. من قبل لم نكن نعرفه ولا حتى سمعنا عنه. أصبح العشاق يتبادلون الهدايا في هذا اليوم، من دببة حمر وقلوب حب مخملية.

كثرما رأيت بعض الفتيات يمسكن بأيديهن دمى صغيرة، وكل واحدة منهن تفتخر أمام صويحباتها بدبدوب أحمر أهداها إياه حبيبها. كنت ضمن هاتيك النسوة السعيدات بعيد الحب، احتفلت به ذات نهار مع منير، في شقته وعلى سريره، كنت فاختة محلقة في فضاء الحب، أصخب بضحكاتي، فيما أجلست الدب على كرسي أمام المنضدة، حيث أطفأنا شموع الفرح، باركني على عيدنا، كان العيد لي وحدي، ولا يشاركني به أحد سواه.

أطفأت ضوء المصباح، واستلقيت على سريري، أغمضت عيني فظهر لي من بين سدف الظلام المتراكمة وجه منير، صرخت به:

- أريد أن أنساك، اخرج من حياتي أيها الوغد.

تصفيق وغناء يصخب في الشارع، جلست على السرير، أزحت ستارة النافذة المسدلة، جمهرة من الشبان يطلقون الألعاب النارية،

إنهم محتفلون بعيد الحب. غرد الهاتف برسالة وات ساب، فتحتها، من سليم.

- **عيد بأي حال عدت يا عيد.**

- **هههههههههههه.**

ضحكة واتسابية لم ترتسم على شفاهي أبدًا.

- **كل عام وأنت بخير.**

- **بمناسبة؟**

- **عيد الحب**.. ليس بالضرورة أن يكون الحب عاطفيًا، فالأب يبارك لابنته، والاخ لأخته، والزميل..

- **لزميلته.**

- **تمام.**

اتصلت عليه، تساقطت دموعي عنوة، كنت بحاجة لمن أبثه همومي، أحس بنشيجي، فزع وسألني عما بي، قصصت عليه حكايتي، قصصتها واقتصصت منها ما كان رقيب الخجل يقتطعه من مشاهد خلوة بيننا، والحليم بالإشارة يفهم. أظنه يعلم بطبيعة المرأة عندما تعشق، وكيف تتوق شوقًا للنهل من شفاه حبيبها لإطفاء ظمأها، وعليه فلا بد أنه حدس بما كان بيننا من أعناق. استمع لي

بصمت، كعادته حينما أحدثه عن شأن فني أو معرض للرسم. لم يعقِّب وإنما سألني بجد:

- ألا زلتِ تحبينه؟

بدا سؤاله ساذجًا، فكيف لمن تتذكر حبيبها وتبكيه أن تنساه، ولا أعلم كيف انفلتت مني إجابة عشوائية مثل الرصاص الطائش حينما يشق الفضاء ثم يختار من بين الآدميين ضحية له بلا جريرة ولا ذنب اقترفه سوى أنه تواجد في المكان الخطأ والوقت الخطأ، يسقط عليه بلا استئذان ويرديه ضحية فضاء غريب يغطي أرضًا أكثر غرابة. جاءت إجابتي مثل هذه الطلقة الطائشة، بددت غياهب السماء ووقعت على قلب سليم مثل الماء الزلال.

- أبدًا.. لقد خرج من قلبي ولن يعود إليه.

صمت ثم قال:

- حسن.

- أين ذاهب؟

- لا زلت موجود.. معك.

- منير.

- ماذا؟!

ضحكت بارتباك ثم أردفت:

- أقصد سليم..

- نعم.

- غن لي.

- لست مطربا كما تعلمين.

- **دائمًا** أسمعك تدندن لوحدك يا مكار.

- عندما أكون لوحدي بالطبع.. أما أن أغني للآخرين..

- ولكني أريدك أن تغني لي هذه الليلة.

- لمن تحبين أن أسمعك؟

- كاظم الساهر.

أطربني صوته، كان شجيًا وهو يسمعني مدرسة الحب، انطلقت من صميم قلبه، أحسسته يغنيها لي، توقف ثم رددها كلمات بلا ألحان، وكأنه يخاطبني فيها:

- علمني حبك سيدتي أسوأ عادات.. علمني أقرأ فنجاني في الليلة آلاف المرات، وأجرب طب العطارين وأطرق باب العرافات، علمني أخرج من بيتي أمشط أرصفة الطرقات.

أكملت معه بصوت واحد:

- وأطارد وجهك في الأمطار وفي أضواء السيارات.

أضاف:

- وألملم من عينيك ملايين النجمات. يا امرأة..

قاطعته:

- هل مررت بتجربة حب؟

- ليس الآن يا غادة.. ليس وقته.

غير الموضوع وشرع يتكلم عن الدوام، وطبيعة مدير الدائرة المتكبر، كما تحدث عن اللغة الفرنسية، وحاول استرجاع بعض مما يتذكره منها بعبارات فهمت بعضها بحكم العلاقة القريبة مع اللغة الاسبانية. انتظرت منه الـ«**je taime**» **لكنه لم ينطقها لا باللغة الفرنسية ولا حتى العربية، ولو أنه صارحني حينها لربما قبلت به، كنت في حالة خدر لذيذ، مستمتعة بصوته الناعم وأنفاسه التي أحس بحرارتها** رغم بعده عني، كنت في أشد حالات ضعفي، فما أضعفنا نحن النساء في ليالي عيد الحب، وبالأخص حينما تكون إحدانا بلا حبيب. لم يصارحني ولكنه دعاني لوجبة غداء في اليوم التالي بعد الخروج من الدائرة، وافقت بكل سرور.

كلام الليل يمحوه النهار، جعلت هذه المقولة نصب عيني أثناء ذهابي للدوام في صبيحة عيد الحب، قررت رفض العزومة، فما أنا

إلا زميلته، فكيف يبيح لنفسه دعوتي؟ ماذا سيقولون عنا؟ وجدته جالسًا خلف مكتبه الملاصق لي، متأنقًا بقميص تركوازي فاتح لم أره عليه من قبل. **يبدو أنه جاء متحضرًا** للحفلة النهارية على شرف صداقتنا. ليس من اللائق الرفض، سأرضخ على مضض شريطة أن أبتعد عنه رويدًا، وألا أحسسه بسعادتي بغدائنا سويًا، فلا طاقة لي بحب جديد، والرجل في كل الأحوال غير مناسب، فهو مطلق حسب ما أعرف، ومن بيئة محافظة، ولن أحتمل رجعيته.

قد يفرض علي ارتداء العباءة، وأن أغطي رأسي بالشال وهذا ما لن أرضخ له ولو على قص رقبتي، تحسست رقبتي، ابتلعت ريقي، قص الرقاب أصبح من بديهيات العراق وليس مثلًا يقال. يا له من خيال جامح يدفع بي إلى البعيد، لعل سليمًا يعتبرني صديقته فحسب، وليس في نيته الإقدام على هكذا خطوة، أظنه لُوِّع بالحب أيضًا. انتهى وقت الدوام فخرجنا معًا، نتمشى على مرأى ومسمع من الناس، وكأننا «كبل» تربطهما علاقة خاصة. تقصدت التجهم، وألا أبدي انشراحي برفقته. اخترقنا سوقًا شعبيًا، هرج الباعة يصم الأسماع، يضج السوق بالمشترين القادمين من القرى والأرياف، رجال تعتلي الكفافي رؤوسهم ونساء متجلببات بالعباءات يحملن أكياسًا ملئت ببضع كيلوغرامات من الطماطم والبطاطا والباذنجان. ثمة طفلان يجوبان بعربتيهما السوق بحثًا عن مستأجرين، وطفل

آخر يعلن عن بضاعته من أكياس النايلون التي تحملها يده بخفة. نظرت إلى ساعتي، في الثانية وعشر دقائق، قلت متذمرة:

- إلى أين تأخذني.

- إلى أرخص مطعم في الناصرية.

لأنتظر عما تتخمض عنه عزومتك، هذا ما رددته في سري، لويت شفتي بضيق. **أردف ليخفف وطء** مقولته:

- إنما أردت المزاح.. سترين بعينيك الآن أبهة المكان وروعة الأكل في مطاعمنا.

رأيت شابًا عشرينيًا يرتدي قميصًا أبيض، وبنطلونًا وجاكيت رصاصيين، حسن القوام بكتفين عريضين وبطن ضامرة، يتأبط حافظة كتب ودفاتر. دهن شعره الملمع، وحدد شاربه ولحيته، دخل السوق على مضض، كي يختصر الطريق المؤدي إلى موقف السيارات الناقلة إلى الجامعة، ليس هذا فحسب، فلعله يروم المرور على محل كماليات ليشتري لحبيبته ما انتظرته طويلًا، وما حلمت به قبل أن تتعرف عليه. أظنه طالبًا في إحدى الكليات المسائية التي انتشرت مؤخرًا.

بعد أن اجتزنا السوق الشعبي، ألفينا أنفسنا أمام مطعم ذي واجهة كلادينج مارونية كبيرة، كتب عليها بخط بنفسجي مرسوم بدقة: مطعم برشلونة، وماذا عن مشجعي الريال؟ ألا يسمح لهم بالأكل

هنا؟ برشلونة والريال: ثنائية لم نكن نعرفها من قبل، هروب هو الآخر من عقد الحياة وهجرة خيالية إلى ال»هناك» فمن لم يجد القدرة على طلب اللجوء بشكل حقيقي فلا شيء يمنع خياله على اقتحام القارة العجوز، واختيار النادي المفضل لتشجيعه والتعصب له أيضًا. همهمت مع نفسي:

- شعب محروم!

دخلنا قاعة المطعم الواسعة، عرجنا يسارًا، رقينا السلم الرخامي إلى صالة العوائل، فقد أصبحت وإياه عائلة واحدة! جلسنا على طاولة بيضوية، بكرسيين جلديين، جاء النادل، تحدث معه، وبعد برهة انتظار ليست قليلة جال خلالها بصري على الديكور الداخلي الجميل والأرضية البورسلانية ذات اللونين الأسود والأبيض. امرأتان تجلسان لوحدهما منهمكتين بالأكل والثرثرة، دخل رجل مع زوجته وابنتيه، جلسا قربنا. جاء النادل بالمقبلات، كنت جائعة، امتلأت الطاولة بالأطباق المملوءة بالمشاوي، مع بعض الرز واللحم المقدد. بسمل سليم، تبعته بهمس، أكل بنهم، وبلا تكلف، استخدم الملعقة وأهمل الشوكة والسكين، يقطع اللحم بيده، ثم يدوفه بالرز ويرفعه بالملعقة إلى فمه، بازدواجية واضحة لاختلاط البداوة مع الحضارة، مثلما يختلط حرف الجيم المدنية في مفرداته

مع ياء الريف، فالدجاجة تصبح «دياية» والحجرة قد تتحول إلى «حيرة». وهكذا يحدث للكثير من الألفاظ التي لا أعرف لها مصدرًا ولا أصلًا، فالماء ينطقه تارة «مي» على طريقة أهل بغداد ثم يعود أخرة لأصله ويسميه «ماي».

أمسكت الشوكة، ضغطتها على اللحم، وقبل أن أقتطعها بالسكين اهتز المكان برمته، تهشم الزجاج، تساقطت قطع من السقف الثانوي، وقعتُ أرضًا، التصق رأسي بالبلاط الصقيل، فتحت عيني، تصاعدت ذرات التراب، لم أعد أرى شيئًا، صراخ النساء وبكاؤهن أرعبني، ذكرني بانفجار الكرادة والنار التي التهمت كل شيء، انجلت الغبرة، اقترب مني سليم.

- ها غادة.

تفرّس بي، انحسر الفستان عن فخذي، لملمته، سترت نفسي، نهضت، ذراعه تنزف دمًا، قال بفزع:

- هل أنتِ بخير؟

تحسست نفسي، تمتمت:

- نعم.. بخير.

كنت مذهولة.

- انظر ليدك، إنك مصاب.

قال لاهثًا:

- لا يهم..لا يهم.

- يجب أن توقف النزيف.

خلع قميصه، تبدى لي صدره المشعر خلال فتحة الفانيلا الواسعة، ربطت له الجرح بإحكام، لم أمسس ذراع رجل مذ فارقت منير، بيد أن رعب الموقف لم يتح لي الاستمتاع به كما يجب.

- هيا فلننزل، أخشى أن يتهاوى المبنى.

هبطنا بسرعة، الصالة الأرضية تعج بالفوضى، بعض من مرتادي المطعم مصابون بشظايا الزجاج، بقع حمر تلطخ الأرضية، لمحت أحدهم ينبجس الدم من عنقه كمن ذبح من الوريد.

خرجنا إلى الشارع، وليتنا لم نخرج. لقد رأيتها ماثلة أمامي بكل تعرجاتها، وقفت أمامها كأني في متحف اللوفر، كانت الجورنيكا بعينها.. نعم إنها الجورنيكا، تتجسد أمامي، ليست مرتفعة بثلاثة أمتار كما هي عليه في باريس، وإنما متفرقة على الشارع العام، أنظر لها من عل، لمحت بقايا سيارة ارتكبت فعل الجريمة، كانت بمثابة الرسام الذي اقترف هذه اللوحة الجهنمية، حيث تناثرت رفارفها وأبوابها مع غطاء المحرك كالسكاكين المشحوذة، تقصم الأجساد التي تعترضها. قطع الماكينة الفولاذية بمكابسها الثمانية تطايرت في

الهواء شاكية أنصالا قاتلة تفتك بكل من يقف بوجهها. انطلقت مع انفجارها مسامير صغيرة كالسهام المجنونة ساعة الحرب، انغرزت بالأجساد المتزاحمة، لا تفرق بين شيخ أو طفل ولا امرأة أو رجل. تخترق الأجساد بانسياب فتستقبلها النحور بترحاب، تلتهم النيران ما تبقي من السيارة، يرتفع عمود الدخان عاليًا، يتسع عرضًا ليستقر بهيئة كمثرى سوداء.

إنها السيارة التي انفجرت فحولت صخب الحياة في هذا السوق إلى جحيم خلال خمس ثوان فقط، خمس ثوان لا أكثر كانت كفيلة بإيقاف جلبة السوق، خمس ثوان فحسب غيرت القدر، وحولت السعادة إلى بؤس، والحياة إلى رمام. تلفون طالب الكلية ملقى بقربه، رن بنغمة سيمفونية كارمينا بورانا، بدأ الكورال منشدًا وكأنه يخاطب الجثث الملقاة في الشارع:

«**آه أيها القدر.. كوجه القمر.. أنت متغير. منذ الأزل.. تشرق وتغرب**.. وتجعل الحياة بغيضة.. تجرح أولا.. **ثم تقدم البلسم.. ولا تمنح سوى الوهم. الفقر.. الجبروت.. تذيبها مثلما تفعل بالجليد. قدر متوحش.. وأجوف.. أنت تدور كالدولاب.**»

رأسه مشوه تمامًا، اختفت ملامحه بسبب قوة الضربة على جبينه، يشخب منه الدم برعونة، متمازجًا مع بياض المخ وجل الشعر.

الأشلاء متناثرة فوق الأرصفة وعلى التبليط، أيادي مقطعة، وأرجل مبتورة، أنصاف أجساد وأرباعها، ثمة رأس أرادت الشظية أن تفصله عن جسده، ألقي وسط مجرى المياه الآسنة. نهض طفل ذو خمسة أعوام، يترنح في مشيته، يبحث عن أمه:

- **ماما**.. ماما.

دارت عيناه وسط أكوام اللحم، لمح امرأة متكورة بعباءة سوداء ملطخة بالدم، مضى نحوها، رأى أمه تجثم على ظهرها وقد خرجت أمعاؤها من بطنها.

بضاعة الخضار ملأت الشارع، قسم منها طالته النيران وآخر اعتلى الرصيف، عينا صاحب البسطة مسمرتان على الميزان النحاسي حيث تناثرت أوصاله واختلت كفته، عينان جامدتان تنظران ولا تريان شيئًا، فقد اختلت كفة القدر أيضًا لدى الشاب وفاضت روحه عن جسده الذي غدا نصفين بمثل كفتي الميزان بتساويهما.

تستعر النار في جسد شرطي، وكأنما سرقت زرقتها من لون قميصه، تفحمت جثته، تفرقت بقربه كريات البرتقال، التي لم يطلها اللهب. تكاثر عدد المسعفين، يحملون المصابين المضرجين بدمائهم. رأيت سليمًا يسحب رجلًا من تحت أنقاض خشبية تهاوت فوقه، يساعده رجلان، يضعون الجريح في قاع سيارة بيك أب. لم أطق صبرًا، هربت من الجورنيكا إلى لوحة الجورنيكا في شقتي.

- لا داع لرسمها بعد الآن.

انتفت الحاجة إليها، كيف أرسم لوحة سبقني إليها القدر، فرسمها بأنامل محترفة. غليان يمور بين جوانحي، كأنما هذه اللوحة الماثلة أمامي هي التي جلبت السيارة المفخخة لهذه المدينة الآمنة. أشعلت سيجارة، امتصصت نيرانها لتحترق في جوفي، لعلها تخفف ما بي من توتر، أنهيتها، ألقيتها أرضا، سحقتها بكعب حذائي.

هرعت إلى المطبخ، أتيت بالسكين، هجمت على قماشة اللوحة، مزقتها، دلقت الألوان السائلة، حطمت الخشب الحامل لها، قلبت الطاولة، طفقت أطعن القنفات بنصل السكين الحاد، أخرجت بطانتها الأسفنجية، وعبثت بها في لحظات جنون فتكت بي. انتابتني حالة من الهيستيريا جراء ما خزنته من صور موجعة، أحشاء المرأة المندلقة من كرشها، مخ الشاب المسال من فجوة في رأسه، جثة الشرطي المتفحمة، كلها جورنيكا.. جورنيكا في العراق، جورنيكا في بغداد، جورنيكا في البصرة، جورنيكا في سنجار، جورنيكا في الناصرية. صرخت بأعلى صوتي:

- جووووورنيييييكاااااا.

مزاج نادجا

«هذا البلد يشبه علبة ليل هائلة الحجم

بنسائه القادمات من أقصى الأرض»

أندريه بريتون

حالما وصل تسمر لثوانٍ فاغرًا فاه، زكمته رائحة غريبة لبارود مشوبة بالدخان، أحس بالغثيان، وبرغبة جامحة للتقيؤ، حاول أن يتماسك، لملم شعث نفسه. أبهذه السرعة يتحول المرء إلى كتلة من الشواء المحترق؟

يا له من مشهد مريع أن ترى الأجساد صرعى، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينوء من فرط آلامه. ثمة امرأة تحمل طفلها، وتصرخ من هول الصدمة في وجهه لعله يجيبها:

– **حمودي**.. حمودي.. يمه أنت عدل لو لا؟

لم يجب.. ولن يجيب. ضمته إلي صدرها، وأخذت تنشج بحرقة فيما الدم يشخب من جبينه وفمه. مشى الهوينا مترنحًا، الدم الرائب يملأ المكان، يخوض في خضمه، أشلاء اللحم متناثرة على سواد الشارع. أجساد مثلومة، رؤوس مقطوعة. أحس بشيء تحت قدمه، نظر، يد معروقة ذات كف كبير، انحنى بتؤدة، التقطها، لعلها المطعم الوحيد لثلة من الأطفال، وها قد بترت، سقطت منه، لم يرجع إليها، أكمل طريقه في دائرة الموت. الصراخ ملء الأسماع، الضوضاء يضجره، والدم المسفوح على الأرصفة يفتح أمامه نافذة لعقد ونيف من القتل والتقتيل. سنوات يصب من بين شدقيها نهر من الدم. تمازجت الصور في ناظره، فتشكلت لوحة كئيبة تؤطرها الجماجم

وتزيتها الدماء. لم يعد يرى سوى اللون الأحمر، ولا يسمع صوتًا عدا بكاء الأم على ابنها القتيل.

هرع المسعفون إلى الشارع المغتال، يتعاونون على حمل المصابين، أناتهم الموجعة تدمي القلوب، وفقد الأحبة يجبر الرجال على ذرف الدموع الساخنة. لمح شخصًا يتحرك تحت صناديق الخضراوات، ركض إليه، أزاح الصناديق، حاول رفعه بيد أن قدمه شبه المبتورة أعاقته، لم تزل تتشبث بقطعة جلد رخوة حالت دون انفصالها، ساعده رجلان آخران، حملوه على مهل، يصرخ بأعلى صوته، وضعوه في قاع بيك أب مع مصابين آخرين، فحصت إطاراتها التبليط بدوران صارخ ثم انطلقت بهم بأقصي سرعة. بقي وسط كدس اللحوم المتناثرة، يخوض في بحر من الدماء.

- أين غادة؟ أين؟

بحث عنها وسط جلبة المسعفين وأنين المصابين، اختفت على حين غرة، لربما آلمها المنظر ولم تحتمل قسوته. ركب إحدى السيارات المتطوعة لإسعاف الجرحى، جلس على كرسي قرب السائق، تمدد في المقعد الخلفي صبي بُقرت خاصرته، لم يئن، وكأنما توقفت أنفاسه، نهبت العجلات الشارع المؤدي إلى المستشفي. تحسس ذراعه المصابة، أحكمت غادة ربطها بالقميص،

خُضبت أصابعه بالدم، توقف النزيف، فالجرح سطحي، ولا يعتد به أمام هذا الشاب الذي تلقفه الأطباء وأسرعوا به إلى غرفة الطواريء.

تم تعقيم ذراعه وربطها بالضماد. ألقى القميص المخضب في أقرب حاوية نفايات، عاد إلى البيت بفانيلا مضمخة بالدم، دلف إلى الحمام ليغتسل، فرك جسده بكل ما أوتي من قوة، لا يريد أن يبقى أثر عالقًا به، ليس هو المجرم ليبعد الشبهة عن نفسه، ولكنه يروم النسيان، فما رآه كان فظيعًا، ولا مأوى له سوى السرير. غفا حتى المساء، حال صحوه اتصل على غادة، لم ترد، اتصل لأكثر من مرة ولا جواب. يبدو أن نفسيتها لا تزال تعبة، ولا تطيق الحديث مع أي كان. فوجئ بتغيبها عن الدوام في اليوم التالي، واجب الصداقة يحثه أن يعودها في منزلها، عليه أن يستطلع أمرها قبل أن ترفع الإدارة غيابها.

ما الذي جرى لها يا ترى؟ الفتاة وحيدة هنا وغريبة ولا أحد يقف معها في محنتها، وقد رأت ما لا قدرة لها على احتماله، كما أنه كان السبب في ذلك، هو من دعاها للغداء، وهو من تسبب في تواجدها هناك. كان من الممكن أن يكونا ضمن ضحايا التفجير لو تأخرا قليلًا. لكل امرئ يومه. بعد انتهاء الدوام، قادته خطاه إلى الشارع الذي تسكنه، وحسب معرفته بعنوان شقتها وجد نفسه تحت شرفتها. **عرف أصص الزهور التي حدثته عنها مركونة في الزاوية. دخل العمارة،**

صعد السلم الحجري، وصل الطابق الثاني، ثمة شقتان، تناوبت عيناه عليهما بالتتابع، أي منهما يقرع؟ خطا نحو الباب في الجهة اليمنى، ضغط على جرسه، رن مرتين، انتظر برهة، وقع أقدام آتية، فُتح جزء من الباب، لم يظهر سوى وجهها وذراعها البضة.

- **مساء الخير**.

بادلته الابتسامة وردت التحية بمثلها، لعلها عرفت سبب زيارته المفاجئة، فتحت مصراع الباب وتوارت خلفه.

- **تفضل** سليم.. تفضل.

ولج الشقة بيمناه، أغلق الباب خلفه، حياها مرة أخرى، أدهشه جسدها بتفاصيله المذهلة تحت قميص النوم، فتحة واسعة عند الصدر، ذراعان ناصعتان بلا أكمام تسترهما، أحس بخطئه، ولكن الأمر قد حدث، وها هو ذا ضيف عليها. أطرق خجلًا، دعته للجلوس، انسلت لترتدي ما يسترها، تمايلت تحت الروب الشفيف، فتمايلت الأرض من تحته.

كل الكراسي ممزقة، لم يجد ما يصلح منها للجلوس، اضطر أن ينظف كرسيًا مما يعلوه من مزق اسفنجية، نثارها يملأ الصالة، انحنى وأقام طاولة مقلوبة على جنبها، قماشة بيضاء ملقاة على الأرض، انسكبت بقربها علب الأصباغ التي لطخت بياض البلاط المزخرف.

الفوضى تعم المكان، يبدو أن حدثًا ما جرى لها، قد تكون مشاجرة مع إحدى الجارات، ربما.

جاءت غادة مرتدية بدلة شتائية حمراء رسم عليها ميكي ماوس، كُتبت تحته بحروف كبيرة 2022. لم يزل أمامهم بضع سنين حتى يصلوا لهذا العام. **ست**رت جسدها، قميصها ضيق يبرز ارتفاع صدرها مع سروال طويل يلتصق بالساقين. **اعتذرت عن عبثية الشقة، رحبت به بأدب، هالتان سوداوان تحيطان عينيها، بدت تعبة ومضطربة، سألها وعيناه مصوبتان نحوها:**

- غادة..ما بك؟ ما الذي جرى؟

- .....

- هل تشاجرت مع أحد؟.. هل دهم أحد ما عليك الشقة؟

- كلا، ولكن..

- لكن ماذا؟

تكلمت بصوت تخنقه العبرة:

- لا أستطيع نسيان ما رأيت.

سحت دموعها، لم يقو على الصمود، بكت أمامه.

همهم:

- لا حول ولا قوة..

- **سليم**.. هل رأيت الطفل كيف يبكي على أمه؟

- **بل رأيت أمًا** تبكي على طفلها.

ازداد بكاؤها، ود لو يبكي معها بعد أن كبت دموعه طويلًا لم يبك على أحد، وتجشم عناء النسيان بكل ما أوتي من صبر، وكأن ما رآه مشهد من فيلم سينمائي وليس انفجارًا حقيقيًا. استرجعت غادة المنظر أمامه، ذكرته بكل التفاصيل. رباه.. يريد أن يعيش لا أن يبكي، كيف يتسنى لبغدادية رضعت حب الحياة أن تتجلبب بشجن الجنوبيات وتبكي مثلهن.

- **لا أستطيع نسيان ما حدث**.

حدقت به ثم سألته:

- **هل رأيت الشرطي المحترق؟**

- **نعم.. كان متفحمًا**.

- **هل رأيت البرتقال بقربه؟** أعتقد إنه اشتراه لطفله الصغير، أراد أن يفرحه به عندما يستقبله في عودته.

- **ربما**.

- **وذلك الشاب؟** تطشر مخه، وكان هاتفه يرن. إنها حبيبته التي اتصلت عليه، من المؤكد بأنها حبيبته. ليتني رددت عليها، لأخبرتها بأن عيد الحب أصبح عزاء، وكل عزاء وأنت بخير.

- بالفعل يا غادة.. عيد الحب أصبح عزاء.

بكت، كأنما ذوبت الجمود في عينيه اللتين دمعتا على كل شيء، على ضحايا الانفجار، على غادة، وعلى نفسه. **توقفت** عن البكاء، مسحت دموعها براحتي كفيها، نهضت إلى الحمام، سمع وشيش الماء، تأفف، أحزنه بكاؤها وفي نفس الوقت بعث في داخله ارتياحًا يجهل سره. عادت ممسكة بمنديل تجفف به الماء عن وجهها، جلست ساكتة، ران الصمت عليهما لثوان، قطع حبله بسؤال:

- هل تأتين غدا للدوام؟

نظرت إليه، عضت شفتها، نكست رأسها، ولم تحر جوابًا. أردف:

- غادة.

رفعت عينيها، تنتظر ما يتفوه به.

- سبق أن قلت لك بأن واقع العراق أصبح أشبه ما يكون بلوحة سريالية.

- صحيح.

- أما الآن فأقول بأنه أقرب ما يكون إلى رواية سريالية، نعم رواية أبطالها مخلوقات غامضة غير ظاهرة للعيان، غريبة الشكل والهيأة، يُسيِّرون حياتنا وفق أمزجتهم، فأوقفوا عجلة السنين.

- والحل؟

- الحل أن نعيش.. ألا نيأس، أن نكون أقوى منهم يا غادة.

اكتفت بالصمت:

- غادة.. أرجوك.. أرجوك. أريدك أن تعودي غادة التي أعرفها. لنبتدئ من الآن ترتيب الشقة، لنعيد إليها الحياة مجدداً.

نهض من فوره.

- أين المكنسة؟

ضحكت.

- ماذا؟.

- قلت أريد المكنسة، يجب تنظيف الشقة أولاً.

- دعها عنك، أعدك بإعادة ترتيبها وأن تكون بأفضل حال.

- هيا إذن.. لنرتبها سوية.

نهضت، خفت إلى المطبخ، أحضرت المكنسة وشرعت تنظف الأرضية الممتلئة بندف الإسفنج وأعقاب السجائر وبعض من أكياس الجيبس وقراطيس أغلفة البسكويت، وعلب العصير الفارغة. ثمة قطعة قماش بيضاء ملقاة قرب خشب الرسم المتكسر وبقع الألوان المدلوقة، حسبها في البدء سفرة للطعام، ولما خطا

نحوها وحملها، امتدت كف غادة وسحبتها منه بسرعة خاطفة. قالت بابتسامة مقتضبة:

- **لا مكان لهذه اللوحة في حياتي، فقد سبقتني إلى رسمها يد القدر.**

لملمتها ووضعتها في سلة القمامة. ومن باب التشجيع سألها:

- ترى.. وكيف ستكون لوحتك القادمة؟

رفعت كتفيها، ويداها ممسكتان بعصا المكنسة الطويلة، ثم قالت:

- **سأرسم كل ما هو جميل.**

- **ارسمي أجمل ما رأيت في الناصري**ة، ألا يوجد ما يثير موهبتك هنا؟

- **وهو كذلك.. سأرسم أجمل ما عرفت في الناصرية.**

بعد أن انتهيا، أبت غادة إلا أن يشرب شايًا من عمل يديها، سرعان ما أعدته، جلبته في صينية نحاسية مع طبق من الكعك المسمسم. شرب على مهل فلعل الوصال يطول، أتى على القدح الصغير ونهض مستأذنًا للانصراف، قالت:

- **لم تزل مطلوب**اً لي بوجبة غداء، لأني لم آكل شيئًا في المرة السابقة.

- **ولا أنا.**

هتفت به مازحة:

- يا مكار.. رأيتك تأكل ثلاث لقيمات.

- حاسبتهن!

- لأ.. «حاسبينك».

ضحكا، ظهرت لثتها العليا، أغلقت فمها بصعوبة، مدت يدها للمصافحة، أمسك أناملها، ليستا بالنعومة المرجوة، يجب ألا ينسى بأنها يد رسامة، وعليه تكون ذات أصابع قوية. هزها برجولة فامتثلت بأنوثة، رفعها إلى فمه فتراخت معه، هوى إليها بشفتيه، قبلها كأي عاشق يقبل ظاهر كف حبيبته.

لم يسعه البيت من السعادة، حلق بجناحيه عاليًا، خفقات قلبه تترى بحبور، جسه بكفه لعله يستكين، لم يزل مرفرفًا، خاطبه بتأنيب:

- ما لك يا قلب؟.. أراك مضطربًا، لم نزل بعد في البداية.

عليه أن يعترف بأن ما يعتريه من شعور تجاهها هو الحب، وليس له من تفسير آخر. راح يردد أغنية «حاسبينك» الأغنية التي ذكرتها له قبيل انصرافه. شرع يدور في البيت كالدولاب، بلا استقرار ولا هوادة، لم يزل بملابس الخروج، جلس على كرسي في الصالة، أخرج التلفون من جيب البنطلون، طلب «حاسبينك» ظهرت الأغنية بتصوير حديث،

وبصوت مطربها الأصلي فاضل عواد، غناها في زمن كانت فيه الأغاني العراقية تسري في الروح، وتحرك لواعج القلوب.

لم يكونوا قد دخلوا في زمن «البرتقالة» كم يكره هذه الأغنية، كرهها وكره كل ذكرى تأتي منها. ليعود للزمن الجميل والطرب الأصيل. أسند رأسه على ظهر الكرسي، ارتخي قفاه على جلدته الطرية، وشفاهه تردد بهمس كلمات الأغنية. تذكر مفرق صدرها اللبني تحت قماشة الروب الرقيقة، ومثل برق وسط الظلمة لمعت تحت عتمة أجفانه المطبقة ومضة فخذيها العاريتين اللتين رآهما لحظة الانفجار. توقف عن الغناء مع الفيديو، ازدرد ريقه، ترددت أنفاسه في شهيق وزفير. تلمظ ثم همهم:

– إنه الجنون بعينه، كيف تسنى للقدر أن يمنحني هكذا وجبة شهية؟

لم يتغد يومها، واكتفى بما التهمته عيناه من لحم أبيض لا يضاهى. ماذا لو قُدر له الولوج بينهما؟ لرفعهما كما رفع يونس محمود كأس آسيا، كانت الفرحة الوحيدة للعراقيين بعد التغيير، فهل يرفعهما كذلك؟ ماذا لو توسدهما وأطبقهما حول رأسه؟ ماذا لو رجهما لتختضا وتترقرقا كما القشطة.

– لا..لا..لا.

يجب أن يكون أكثر طهرًا في عشقها، عليه أن يعف عن هذا الخيال. نهض بعد أن انتهت الأغنية. ماذا هو فاعل الآن؟ تبسم، سيعود للقراءة، القراءة التي تركها منذ ذلك اليوم اللعين. ماذا كان يقرأ حينها؟ تذكر.. رواية نادجا لبريتون، الرواية التي وصل منتصفها ولم يفهم منها شيئًا. سيعيد قراءتها، نعم.. سيعيد قراءتها. تذكر اليوم الذي غير حياته، لم يعد يتبين ملامح طليقته، لقد أمحت صورتها من ذهنه مثلما مسح اسمها من قلبه.

الرواية قليلة الصفحات، تكثر فيها الصور الفوتوغرافية والرسومات، أرادها بريتون رواية سريالية رغم إعلانه في بيانه الشهير بأن الرواية كجنس أدبي في طريقها إلى الزوال. فلماذا تراجع وكتب نادجا؟ ألأن صديقته نادجا أكبر من شعره ولا يحتويها سوى ثوب الرواية الفضفاض؟ أم تراه لم يشأ التغزل بها فآثر كتابة رواية لها؟ لعلها رغبة منه في تحدي هذا الجنس الأدبي، والخوض في غماره، ليثبت للجميع أن السريالية أعلى مرتبة منه. قد يكون الشعر والرسم ميدانًا متاحًا لدى جماعة السرياليين، فكتبوا القصائد ورسموا اللوحات، بينما تركوا الرواية للواقعيين.

بريتون يمقت الواقعية، لأن الواقع بائس، والخراب كان يعم قارة أوروبا، ارتأى اللجوء إلى الحلم والغور في دهاليز العقل الباطن.

ابتكر القصيدة الآلية الخارجة من أعماق اللا شعور، فهي خير ما يلجأ إليها الهارب من واقع كئيب. بيد أن هذا الرأي قد مضى عليه قرابة القرن إلا نيف من السنوات. أوروبا تغيرت، وأصبح الواقع لديهم أكثر جمالًا. ذوت السريالية إن لم تكن ماتت، ولكنها استيقظت في العراق، ليست مذهبًا أدبيًا بل واقعًا معيشًا.

أصبحت الحياة لا شعورية، حلمًا أو كابوسًا، وعليه فلا يستوعب العراق ولا يعبر عنه إلا عمل سريالي مطابق له. الرواية في يده، قلب أوراقها، لا يعرف إلى أية صفحة انتهى، ولا من أين يكملها؟ لا ضير من البداية، ليعيد قراءتها، فهو بحاجة لتطوير لغته الفرنسية.

أمضى ليلته مع بريتون ونادجا، تملكه شعور بالانتصار، لقد انتصر على هذه الرواية الغامضة، وفهم ما كان يجهله منها. فككها وسبر أغوارها، دقق ما بين السطور فأنهى صفحاتها المائة والعشرين في منتصف الليل. أعجب بشخصية نادجا الشفافة، سيما وهي متمكنة من ريشتها، حتى إنها جسدت صديقها بريتون في رسمة رمزية لهما معًا.

هكذا هن الفنانات دائما، لا ينفكن عن رسم كل ما يحببن. وعدته غادة أن ترسم أجمل ما رأت في الناصرية، فلينتظر وليرى ماذا ترسم؟ الأهم أن تكون لوحة واقعية، ليس كما يرغب السرياليون الذين هدموا القواعد الأساسية للواقع ونصبوا نظرياتهم محلها، حينما أعلن بريتون

بيان السريالية الشهير الذي اعتبر بأهمية البيان الشيوعي. لقد سأم العراقيون البيانات. منذ عام 1958 والبيانات تترادف على أسماعهم. ما بين سنة وأخرى تعلن إذاعة بغداد باسم الشعب البيان رقم واحد. مذ امتشق العسكريون سيوفهم وذبحوا الحياة المدنية في العراق الملكي والبيانات العسكرية لم تتوقف. توسم الشعب بمجيء أمريكا انتهاء حكم العسكر، والعودة إلى النظام البرلماني والانتخاب الحر، وهذا ما تحقق، ولكن.. تبسم ثم همهم:

– شر البلية ما يضحك.

قهقه بألم، ثم قال كمن يحدث شخصًا أمامه:

– العراقيون أنفسهم يطالبون الجيش بإعلان البيان رقم واحد، وانتهاء الديمقراطية.

سأمنا هذه الفوضى وكل هذا الخراب، سأمنا كلمة «ماكو» التي وضعت أمام كل شيء فأصبح العراق بلد الـ«ماكو». الكل يصرخ بوجه المفسدين ويجأر شاكيًا لرب العالمين«ماكو ماي، ماكو كهرباء، ماكو شوارع». ما معنى كلمة ماكو؟ ومن أين جاءت؟

بدد طوق الصمت صوت الأذان، أغمض عينيه، وعد نفسه بنومة هانئة قلما يحصل عليها مواطن عراقي، حيث تتوفر ثلاثة عوامل نادرًا ما تجتمع، هدوء المكان، وعطلة نهاية الأسبوع، والجو الشتائي البارد.

أمضى عطلة الجمعة والسبت دون أن يهاتفها منتظرًا المبادرة منها، ليس من العدل أن يكون المتنازل دومًا. لم يفارقه هاتفه الذي لم يرن أبدًا، حتى حل صباح يوم الأحد. تأنق ببنطلون جينز أسود، وجاكيت جلدي ماروني، فُتحت أزراره فتبين القميص الأصفر الفاقع من تحته. تمشى إلى عمله بخطو سريع كمن يسابق الزمن، وفي داخله أغنية تتردد:»قلب قلب وين وين.. غايب عليه يومين» ثم يبتسم حال وصوله للمقطع الذي يقلد فيه الفنان صوت القط «بسبس بسبس.. بسبس مييو.» أين هذه الأغنية من «حاسبينك».. كم أنت ذواقة يا غادة. يغذ السير على أمل أن يجدها أمامه، غير أنها لم تأت أيضًا.

ألفى كرسيها فارغًا مثل كرسي العراق في الأمم المتحدة بعد الإحتلال الأمريكي، ليس له سوى علم صغير منتصبًا أمامه ناكس الرأس مخذولًا لعدم وجود من يمثله. حينما خرج سفير العراق في الأمم المتحدة صارخًا بمقولته الشهيرة: «انتهت اللعبة». أية لعبة يعنيها؟ لعبة الحرب؟ إذا كان هذا مقصده فهي بالنسبة لنا البداية، لقد ابتدأت اللعبة عندنا ولم تنته.

تأفف لعدم حضورها، هم أن يخبر رئيس القسم بزيارته لها، عدل عن رأيه، لن يجلب لها الشبهة، كما أنها ليست ضمن حدود مسؤوليته حتى يحق له السؤال عنها. ليترك أمر الوصول لبيتها لرئيس

القسم، ولكنه وكما يعرفه جبان، متخاذل، أسرع ما لديه أن يرفع غياباتها للمدير مشفوعة بتقرير يوصي بفصلها. لم لا يسأله عنها؟ هذا ما خطر له، وقبل أن يتفوه دهم عليهم المكان مدير عام الدائرة. نهضوا جميعًا، استقبله رئيس القسم بترحاب، سأله زجرًا عن غادة وعدد أيام غيابها، هدر صوته بغضب، وصفها بالبنت المستهترة التي لا تعي معنى المسؤولية. ثم تكلم بأمور أشبه بالألغاز، رسمت أكثر من علامة استفهام في ذهن سليم. أزبد بوجه محمر، وكرشه يرتج مع كل تلويحة تهتز بها سبابته الضخمة.

– هي لا تعلم بأنها ما إن انتقلت إلينا حتى لحق بها التقرير مثل البرق، محملًا بمعلومات كاملة عن سيرتها هناك. لا أريد الخوض بما لا يجب، ولكن..

تفرس في الوجوه، نفه عن ربطة عنقه، خفف من عقدتها، أخذ نفسًا.

– العمل هنا ليس بمثل ما عندهم في الوزارة.. هنا التزام.. التزام بالدوام الرسمي أولًا..

سدد على سليم نظرة ثاقبة سمرته في مكانه، ثم أردف:

– والتزام خلقي.

لم يجادله رئيس القسم، وقف أمامه مطرق الرأس بكل خنوع، أتم حديثه بقرار نهائي لا رجعة فيه:

– سوف يتم فصلها من الوظيفة حالما تتجاوز غياباتها الحد المقرر.

يبدو أن المدير كان يقصده بسبب ما يربطهما من علاقة متينة أثارت انتباه الموظفين. ياله من قزم صغير. قرر في تلك اللحظة أن يسكته ويخرس كل الأفواه المتربصة بهما، فقد آن الأوان أن يفاتحها بموضوع الزواج. تذكر فخذيها الطريتين، تلمظ وتخيل نفسه يهبط بمزلاج من قمة جبل ثلجي، ثم أكب على أوراق أمامه ليكملها.

في المساء دخل على اسمها في الوات ساب، لم تفتحه منذ يومين، يبدو أنها جد متعبة، تنازل عن كبريائه وراسلها، ترك الموبايل على المنضدة، مدد قدميه، أخذ يسائل نفسه عما قرره صباحًا، البنت ممتازة جدًا، ولا يعيبها شيء، ولكن ما الذي يرمي إليه المدير؟ وأي تقرير وصله عنها؟ سأخبرها بما قاله وعند غادة الخبر اليقين. غرد هاتفه بنغمة عصفورية، هرع إليه، حياها واستفسر عما بها. تقرأ ما يكتب دون أن ترد، سألها:

– غادة.. ليش اليوم ما داومت؟

– مالي مزاج.

استغرب لتفاهة الجواب، اتصل بها، وقبل أن تكتمل الرنة الثانية صدمه رفض المكالمة. كتبت له:

– رجاء أستاذ سليم.. تعبانة وما عندي طاقة للكلام.

أستاذ!.. أصبح الحديث رسميًا إذن، على قدر ما يعشق كلمة أستاذ إلا أن غادة غيرت دلالتها، فتحولت من سمة الاحترام والتبجيل إلى معنى آخر. وكأنها تقول له: الزم حدودك.. فنحن لم نزل مجرد زملاء عمل لا غير، لم نتجاوز مرحلة حفظ الألقاب، ولم ينكسر الحاجز بيننا بعد. ولكنها كانت في آخر لقاء جمعها به أقرب إليه مما يتخيل. ما بالها اليوم تغيرت؟ كأنها نادجا بريتون؟.. نفس التغير ونفس العقدة، كلتاهما رسامتان، نادجا انتهت بها الحال في مصحة نفسية، أما غادة فلا يعلم كيف سيكون مصيرها؟ كتب إليها.

– هل تسمحين لي بزيارتك غدًا؟

– لا.

توقفت عن الكتابة، لم يرد جراء جوابها الحازم، إنها تكتب، ترى.. أية صدمة أخرى تنتظره؟ وصل ما كتبته.

– أستاذ سليم.. أن أستقبلك في بيتي لا يعني أن بيتي مفتوح دائما لزياراتك. أنا بنت وحيدة هنا، والناس ما ترحم.

تقاطرت كلماتها الحارقة على صخرة قلبه بتتابع فتفتتت صلابته. أنهت الوجع المستعر باختتام الدردشة:

– مع السلامة.

أغلق الجهاز وقلبه يغلي على هذه المتلونة صاحبة المزاج البرتقالي، لوى شفتيه، رفع منكبيه، أطلق ضحكة مؤلمة، ثم قال:

- لا يهم.

فليعتبرها مثل صابرين حينما انتهى ما بينهما في لحظة وها قد نسيها تمامًا. فلتكن حادثًا عرضيًا خرج منه سالمًا، أو عارضًا صحيًا ألم به. لن يطيل البكاء على أطلالها ولن يكتوي بنارها. عليه أن يلقي بها في زوايا النسيان. حاول القراءة فلم يقدر، خرج من بيته في زيارة خاطفة إلى أهله. وأثناء جلسة عائلية بينهم، يحاذيه على اليمين أخوه هاشم، حدجه بنظرة استفسار، ثم سأله عن غادة، تلعثم بيد أنه لا فائدة من الهروب، يبدو أن المدير أخبره بكل شيء. ما كان منه إلا أن يبرر الأمر ببراءة صداقتهما، إلا أن أخاه أنهى الحديث بقوله:

- اتركها.. ما تفيدك!

ليست محض نصيحة بقدر ما كانت صيغة أمر مشفوعة بتأنيب. لم يجادله، وأقر بعدم ملاءمتها له. نسيها أو بالأحرى تناساها. لم تأت إلى الدوام في الأيام التالية مما أراحه من عذاب لا طاقة له به. كأنها حلم وقد صحا منه، حلم شبيه بذاك الذي نشره بريتون في المجلة السريالية حينما رأى في نومه جنازة تتجه في الإتجاه المعاكس، وفوق التابوت رجل شاحب تمامًا، حزين جدًا، يعتمر

قبعة من الشكل العالي، ورغم إنه ميت فهو يجلس ويتلفت يمينًا ويسارًا، ويرد التحية للعابرين.

بعدها يصل بريتون إلى باريس، يذهب إلى التبول، ثم يجلس على مصطبة فيرى مبولة تحلق، وفي المساء يجلس في بيته مع بيكاسو وهو في حالة وسط بين حالته الحقيقية وحالته الروحية بعد موته، يرسم بشرود على دفتر جيب صغير. في نهاية الحلم يتخذ له مكانًا في قطار قبالة فتاة ترتدي لباسًا حزينًا، ويبدو أنها تتصرف تصرفًا سيئًا، وأمها توبخها، ويبدو أنها كان يمكن أن تعبر عن ندمها إلا إنها بقيت صامتة تقريبًا. هكذا ينهي بريتون حلمه المفعم بالرموز. لم لا يفسر الحلم على أنه حلمه هو وليس لبريتون؟

- فكرة جيدة، لنرى ما ينتج عنه تفسير أحلام الغير على أنها أحلامنا؟

فالرجل الميت هو سليم لا غيره، يسلم على الناس ويخالطهم، ولكنه أضحى كما الأموات، جسدًا بلا روح. وما المبولة الطائرة إلا رمز للشظى المتطاير ساعة الانفجار، الانفجار المتمثل بلوحة أرادت غادة أن ترسمها فلم تكملها، فظهرت في الحلم بهيئة بيكاسو، وبدلًا من رسم لوحة على قماش كبير صغرت الدنيا في عينيها وأخذت ترسم على ورق الدفتر الصغير.

أما فتاة القطار الصامتة فلا حاجة لتفسيرها، إنها غادة بلا شك، غادة الحزينة التي صمتت رغم خطئها معه. لكن، ما يعني تقريع الأم لها؟ ما هي خطيئتها يا ترى؟ تذكر كلام مدير الدائرة ونصيحة أخيه. يبدو أن ثمة لغز يجهله.

لم يأخذ الفرصة الكافية للتعرف عليها حتى يطّلع على سرها. لربما اقترفت ما يمس أخلاقها، قد تكون مرت بتجربة حب، وإن كان، فهل يعني إدانتها بعفتها؟ أغلب النساء يعشقن، ولهن الحق في ذلك، ولا يعتبر الأمر فضيحة. يبدو الأمر أكبر من ذلك، تراها متورطة بقضية فساد مالي؟ لا يمكن أن تفعلها غادة وتنحدر لمستوى الاختلاس أو ما شابه. رغم فقرها ولكنها تعف عن السرقة. ثقته بها أكبر من هكذا إسفاف لا يتلوث به إلا الفاسدون. إنها فقيرة وتعيش على ما يدره عليها مرتبها الضئيل. فقيرة ووحيدة، ينطبق عليها ما كتبه بريتون عن نادجا:

«لكن نادجا كانت فقيرة، وهذا يكفي في زماننا لإدانتها، ما إن يخطر لها عدم التقيد كليًا بالقاعدة السخيفة: المنطق الصائب والأخلاق الحميدة. وكانت وحيدة أيضًا، إنه لرهيب أحيانًا أن يكون الإنسان وحيدًا إلى هذه الدرجة». كم أعجبته فقرة أخرى قرأها له.» أن الحرية المكتسبة في هذه الدنيا مقابل ما لا يحصى من التنازلات

الصعبة تتطلب أن نتمتع بها بلا قيود، طوال ما هي ميسرة لنا دون اعتبار ذرائعي من أي نوع».

فهل تمتعت غادة بحريتها في بغداد دون أي اعتبار لرادع اجتماعي أو ديني، وهذا ما أتاح لأن تتقول عليها الأقاويل. لعلها استوعبت الدرس جيدًا وآثرت أن تكون محافظة إلى حد ما، ولهذا السبب منعته من زيارتها، بل قطعت علاقتها به نهائيًا. لم لا يتجسس على اسمها ليرى آخر ظهور لها في الوات ساب؟. لن يرسل لها، فقد استقر رأيه على نسيانها. ولكنه ما إن فتحه حتى شهق، رسالة منها، فتحها، حدق بها مليًا، تمتم:

– مستحيل.

لقد وعدته أن ترسم أجمل ما رأت في الناصرية، وها هي ترسل له بورتريه له مشفوع برسالة قصيرة.

– رسمتك حسب ما أوحته لي ذاكرتي من صورة لك.

كتب من فوره:

– شكرًا نادجا!

ساعات دالي

«أنا لا أريد حياة مثالية، أنا أريد حياة سعيدة»

سلفادور دالي

سيجارة «كينت» بين شفتي المتيبستين، أمجها بهدوء، تلتهب الجذوة مخلفة إثرها طفوًا رقيقًا، لا يلبث حتى يتناثر لأدنى حركة فوق الطاولة الصاجية. المنفضة أمامي ممتلئة بأعقاب السجائر، يحاذيها كوب بوشالة النسكافيه. لتكتكة ساعة الحائط وقع رتيب يوحي برتابة الزمن وخطوه الثقيل. تخطت الثانية، ثمة ساعتان أخريان ليبزغ الفجر معلنًا ولوج صباح جديد، أو لعله ملل جديد.

كأن ميل الساعة يلتف حول عنقي، جعلت من أصابعي حائلًا دونه، قطعته بقوة، نظرت لكفي المضمومة، سلسال قلادتي يتدلى، فيما تساقطت خرزاته في حجري على قميص النوم، لتكمل مسيرها المنحدر نحو الأرض، متفرقة حول قوائم الكرسي والطاولة.

صوبت نظراتي نحو الشرفة، اعتدت الوقوف عليها، أطل من علٍ على الشارع الغاص بالمارة والسيارات. أشحت بوجهي عن خاطر مزعج ما برح يقرع معاقل فكري. كثر ما تخيلت نفسي أشق الهواء الطلق في سقوط متوهم يهشم هيكلي العظمي ويفلق جمجمة رأسي.

رسوم متحركة تظهر في التلفاز، نقبت بقنواته حتى كلت أصابعي، لم أعثر على ما يسليني أو يذهب عني غمامة حزن تدلهم في فضاء الشقة. تركته على قناة أطفال ثم أخرسته، ليظل «توم» يلاحق «جيري» في مطاردة أبدية لا تنتهي، طالما أزعجت بها أبي

إبان طفولة لم يبق منها سوى طيف رجل يحتضنني ويحملني على كتفه دائرًا بي أنحاء البيت.

أخذت نفسًا من الهواء إثر شعور بالاختناق يكتم علي، رغبة جامحة للصراخ تصطخب في جوانحي، جبل دهني يطبق على صدري، كآبة تستبيح سعادة موهومة استرقتها في غفلة من الزمن. منذ أيام والغثيان يغمرني.

- حتى الرسم لا يجدي نفعًا.

رسمت قبل أيام لوحة لامرأة بملامح غير واضحة، خلفها ساعة كبيرة، عقرب الساعات يمتد إلى رقبتها، يشنقها فيما قيدت عقرب الدقائق يديها من الخلف، وعصبت عيونها بالثواني. تدلت على عمود بندول الساعة مشنوقة حيث رُفع رأسها ونُكش شعرها. زُرعت حولها ساعات منبهة مثل حقل ألغام، تسطع فوقها الشمس فاقعة كأنها مصابة بالصفرة، نُقطت حواشيها باثنتي عشرة نقطة، ثمة مؤشران مثبتان على الساعة الثانية وعشر دقائق. لماذا هذا التوقيت حصرا؟ لا يعرفه أحد سواي أنا وسليم.

سليم الذي ادّعى بأن فكرة اللوحة مسروقة من سلفادور دالي الذي أسهب في رسم الساعات. أصبح سليم متابعًا للحركة الفنية، بماضيها وحاضرها، فلا يُقام معرض حتى يخبرني به، لنذهب سويًا

كأي عاشقين مغرمين بالبحث عن الجمال أينما وجد. لم أتأبط ذراعه ولم تشتبك أصابعنا بحميمية المحبين. كنت أنساه أثناء تجوالي في أروقة المعارض، ولكنه يغفر إهمالي له. **وبعد أن نخرج يظل يثرثر عن جمال اللوحات وكأنه ناقد حاذق.**

كم أعجبه سلفادور دالي السارق الذي أغوى غالا حبيبة إيلوار واختطفها منه.

- إنه قناص ماهر يا غادة.

أجبته بإنكار:

- **وهل المرأة طر**يدة للصيد حتى تنتظر من يقتنصها؟

تنهد بحسرة.

- بعض النساء مع الأسف الشديد.. تهجر من يشتريها بدم قلبه وتركض خلف من يصطادها مثل الفريسة ويسومها الذل والهوان.

كانت تجربته مريرة مع زوجته، تركت بقلبه جرحًا لا يندمل، فالخيانة قذرة ومن الصعب تجاوزها. هل شكل الأمر لديه عقدة إزاء كل النساء؟ وإذا ما عرف بقصتي؟ ماذا لو رأى المقطع كاملًا؟ يسمع تأوهاتي ويرى كل تفاصيل جسدي عارية أمامه، يشهد عهري على سرير ساخن. لربما يفقد الرجل عقله، ولن يكون له مأوى إلا

مشفى الأمراض العقلية. لقد أحبني بجد وصارحني بذلك لحظة خوف من فراقي.

كنا نقتعد مصطبة حجرية على مقربة من شاطئ الفرات، حيث تركد أمواجه الخضراء المختلطة بمياه المجاري الثقيلة، كل أنهار العالم صافية بلون السماء عدا نهرينا اصطبغ لونهما بما لا أدري، الذي أعرفه أنه في ذلك اليوم صارحني بحبه الحقيقي، لم أتفاجأ، فعيونه دومًا تنبض بالحب. سكتُّ، ولم يكف عن بث تباريح حبه، لم يمنحني فرصة للتفكير. سرعان ما عرج على موضوع آخر لا صلة له بالحب، كان من شأنه أن يجعلني أفور من الغيظ. ليس ذنبه بالطبع ولكنه قال ما كنت أخشاه، إذ سألني عن السر الذي يجهله عني.

حدقت به غاضبة، انتفضت ووجهي يقطر غضبًا، استوقفني، صرخت به أن يتركني وشأني، هرعت إلى شقتي القريبة، وكان يسير خلفي بسرعة، كلما صار حذائي طردته بصرخة تثير انتباه المارة، توقف عند باب العمارة، فيما صعدت درجاتها قفزًا، فتحت الباب، خببت إلى غرفتي، ألقيت نفسي على السرير، لم أبك، كنت مشدوهة، لقد وصلت فضيحتي إلى الناصرية، فإلى أين المفر؟ العراق الذي وصفه جورج بوش قبل الحرب بأنه بحجم ولاية كاليفورنيا أصبح

بعد السقوط أصغر من قرية، وكل خبر يشاع لا يعدم وصوله إلى أقصى منطقة فيه.

ممارسة جنسية في شقة منزوية في أحد أحياء بغداد، يصل صداها إلى مدن الجنوب، يشاهدها الرجال والنساء بشبق حيث يعاينون أدق التفاصيل، ويصل الأمر بمدير الدائرة أن يلمح بمعرفته بالفضيحة أمام الموظفين. كم أنت صغير... أيها المدير. درجتُ إلى الشرفة، إنها قريبة من الأرض، فهل السقوط منها كفيل بموتي، أم ينتهي الأمر إلى كسور ورضوض؟ أريده سقوطًا مريعًا.. **شبيه بسقوط العراق في 2003. سقوط تتبعه دماء وأشلاء.**

هدأت نفسي رويدًا، فما كان متوقعًا قد حدث. لعل سليمًا لا يعلم، ولكن الأيام كفيلة بإخباره. ما دام يبحث عن حل اللغز في ما قاله مدير الدائرة، حتما سوف يصل للنتيجة، سألني بشكل مباشر فانتفضت أمامه. ثورتي الغير متوقعة وحدها كفيلة بتكثيف التنقيب عما يجهله، فالفضول عادة سيئة تكتنف الرجال في كل ما يخص أسرار النساء، فما بالك إذا ما كانت معشوقته.

دقات الساعة تحملني نحو يوم جديد، لا يختلف عن سابقه شيئًا. لاحت لي صورة حبيبين رأيتهما في المقهى، نظرات دافئة يرنوان لبعضهما البعض، همسات لطيفة، ضحكات بريئة. طاولة أخرى

تحلقت حولها أسرة من رجل وامرأة مع ابنتهما التي أخذت تدور بين الموائد حتى وصلت إلي. تجهمت بوجهها، فهربت الصغيرة في وجل.

هاتفي الخلوي يرن في غرفة نومي، لعله سليم، لقد سأمته، بل كرهته. منذ تلك الجلسة التي شوهها بصراحته المقيتة وسؤاله الأحمق، لم أخرج معه البتة، عدا بعض من المحادثات الهاتفية المتراوحة في طولها. كان قد اعتذر عن خطئه، ولام نفسه على تطفله. ولكن.. كما يقولون..لات حين مندم. كلما وصلت معه لمرحلة متقدمة من العلاقة يأتي طارئ ليخربها، وكأنها رسالة تحذير إلهية أن أتركه. كما إنني وبصراحة لم أكن أنظر إليه سوى أنه صديق، وهو الذي فتح باب الحب على مصراعيه. «الباب اللي يجيك منه ريح سده واستريح».

أوصدت الباب في وجهه ولم أترك له سوى نافذة الهاتف، أحدثه من خلالها. يعز علي أن أتحدث عنه بهذه الطريقة، فهو من كان لي خير مرفأ في بحيرة الناصرية الراكدة، أبحر إليه وأرسو على شطآن كلماته التي لم تكن بالسحر المرجو، ولكنه ذو قلب كبير. ألح أن أعود إلى عملي، وأنه من الممكن جدًا الرجوع بعد قرار الفصل، فالواسطة فوق القانون. لم يكن ليفهمني. قلت له:

- لن يطول بي المقام هنا.. فأنا على وشك الإفلاس.

قلتها ضاحكة، تجهم وجهه، سألني:

- هل تعودين إلى بغداد؟

- طبعاً.

- ولن تعودي لوظيفتك؟

- أبداً.

- ومستقبلك؟

- ما به مستقبلي؟

قال بغضب مكتوم:

- سوف يتحطم.

أجبته ببرود:

- بالعكس.. سأتزوج وأستتب في بيت الزوجية.

كنت أغالب ضحكة قد تفلت مني، ليست سخرية ولكن لتفاهة ما يجري. وإلا كيف تترك امرأة وظيفتها من أجل الزواج بمن لا تعرفه؟ وأي استقرار منزلي أرجوه؟ هتف بي، وكأنه يقرأ أفكاري:

- مثلك مثل أي امرأة عادية؟

- ومن أخبرك بأني مختلفة؟

لم يحر جوابًا، قلت بجدية:

- **سليم..تأكد بأني جد عادية**، ولا شيء يميزني عن قريناتي. أنا لست بالصورة التي في مخيلتك.

لم يصدق ما قلت، وتسرع بمصارحتي بحبه. هل تركته بسبب سؤاله عما أخبؤه من سر يجهله، أم لأنه صارحني؟.. لا أعلم. كل ما أعرفه أنني قررت عدم صحبته في أي مكان عام ولا خاص، لن يكون بيننا غير الاتصال. قد أكون قاسية معه، ولكن هكذا يجب أن أفعل مع كل الرجال.

صار ديدني التجوال في الأسواق، والتفرج على البضائع في المحلات. بعض المجمعات التجارية كبيرة وزاخـرة، وجدت مقهى عائليًا في إحداها، صرت أحدى مرتاداته الدائمات. أرسلت لي والدتي حوالة مالية تبقيني لشهرين آخرين، فوبيا بغداد ترعبني، وأجدني في حيرة من أمري في اختيار المكان الأنسب لاستقراري.

بعد مغادرتي المقهى هذا المساء، آثرت أن أجوب الأسواق في تجوال غير محدود. درت في شارع الحبوبي كأني ملاح تائه ضل طريقه في عرض البحر، وشرع يبحث له عن مرسى. أبت لشقتي مصدوعة الـرأس، بعد دوران في دوامـات المحلات المزدحمة بالبضائع والمشترين، وإزعاج أصوات الباعة التي لا تكف عن الزعيق.

ما إن دلفت الصالة حتى ولجت غرفتي، واندسست تحت غطاء ناعم، لم يزدني تدثري في الفراش إلا أرق على أرق. تقلبت، أخذت أعد من الواحد إلى المائة، مللت من العد. تكتكة ساعة الحائط تدك رأسي، تناولت قارورة عطر من فوق الكوميدينة، رشقتها بها، فتكسر زجاجها ثم ترجرجت قليلا لتهوى متهشمة على الأرض.

النوم يجفوني، انسللت من على السرير، خرجت، دخلت الحمام، تعريت، وقفت تحت الدوش، تدفق الماء الساخن من فوقي، غمرني، تفتحت مسامات جلدي، حمي الدم في أوردتي، أغمضت عيني، سرحت في عالم آخر، تمنيت لو تسمر الكون وتوقف الزمن، لبقيت هكذا في انتشائي العجيب. مللت من الوقوف، فتململت في مكاني، ارتديت ملابسي الشفافة فوق جسدي المبتل، جلست على كرسيي، بعد أن صنعت لنفسي القهوة.

ها أنا في مكاني، أحرق السيجارة تلو الأخرى، سرى الغثيان لكل مفاصلي. أين تجري بي الأيام؟ عمري يذهب سدى، أود لو أني أطلق صرخة تتصدع لها كل هذه الجدران المزخرفة. رفعت ذراعي عن الطاولة، أحسست بالتصاقهما، كل ما يحيط بي دبق، اللزوجة تعم الأرجاء. نظرت إلى الساعة، ليس لها معنى، وكأنها تتموع، تذوب، تسيح على الحائط، اغرورقت عيناي بالدموع، ثم أجهشت في البكاء.

مسحت خدي المخضلين براحتي كفي، نهضت عن كرسيي. خطواتي ثقال وأنا أتهادى نحو الشرفة، نفحتني نسمة باردة، تخللت أصابعي شعري الناعم، فرغ الشارع من المارة، وأقفلت المحلات.

دهمني نفس الخاطر المزعج، أغمضت عيني، ثمة ساعة بمنبه تبزغ وسط عتمة متناهية الظلمة تحت جفني المطبقين، ساعة أخرى، ثالثة ورابعة، مئات الساعات الجدارية واليدوية تملأ سرمديتي، كلها تتحرك، تتراقص، تدور فيدور رأسي بدوار درت بفعله حول نفسي، فاستندت بيدي على الحائط.

تمتمت في سري:

- أما آن للزمن أن يتوقف؟

عببت نفسًا عميقًا وزفرته بغيظ لاهب، عدت أدراجي إلى كرسيي، علبة السجائر تنتظرني، أشعلت واحدة، سحبت نفسًا ونفثته، كم أنا بحاجة لكأس معتقة تسكرني، لعلي أنسى بعض همومي، كلما تناسيت هما انبثق آخر محله. يا لها من ذاكرة لا تنفك عن الإصرار على استدعاء كل قبيح، ألا تمحي من رأسي هذه الذكريات السود؟ إنه إصرار الذاكرة كما رسم سلفادور دالي في لوحة غريبة، لأربع ساعات مثنية في حالة مائعة، وخلفها تظهر صحراء خالية، فأين البشر وسط هذا الخلاء؟

لماذا ذابت هذه الساعات؟ أنها رمز لهدر الوقت بلا معنى، وكأننا في حالة حلم لا ينتهي. لم أزل أحلم ولم أستيقظ بعد. الانفجار حلم، والفضيحة حلم، ووجودي الآن وسط هذه الشقة في حالة هذيان حلم كذلك. متى أصحو منه يا رب.. متى؟. شهقت بقوة، حبست الهواء بداخلي، ثم نفخته بحرقة، نهضت، حملت الكرسي إلى الشرفة، جلست مستندة بقدمي على الدرابزين، لم أعد أبالي بأحد، ثلاثة شبان يمرون في الشارع، عيونهم تحدق بي، نظراتهم تخترق ساقي اللتين انحسرت عنهما البيجامة، بيد أن باطن خفي البلاستيكي تضرب جباههم. اشبعوا صفعًا أيها الأوغاد، يا عبدة اللحم الأبيض. النجوم تتلألأ في السماء، القمر بينها بنصف وجه، يمنحني أذنه اليمنى لأبثه ما يختلجني من آهات، حدثته سرًا:

– **سوف تكتمل بدرًا** ثم تذوي رويدًا حتى تختفي فتولد من جديد.

دورة زمنية أشبه بدوران عقارب الساعة، بل هي أقرب بدوران الأرض حول الشمس.. حيث يكون الزمن.. الزمن! وما معناه؟. من يخترق الآخر، نحن أم هو؟ لم تزل الساعة تدور وعمري ينقضي هباء. الظلمة تدلهم، تُطفؤ الأضواء وتختفي السيارات، ولم أزل على كرسيي أحدق في الفراغ، كأني لوحة سلفادور دالي «فتاة عند النافذة». اللوحة التي رسم بها أخته آنا ماريا مولية ظهرها للناظر في

وقفة تأملية في مياه النهر. ما الذي يعنيه يا ترى؟ أظنها إحدى سوراته المجنونة تمخضت عنها تلك اللوحة الغامضة. كانت أخته آنا ماريا بمثابة أمه التي ترعاه، وتحنو عليه، حتى جاءت غالا وأزاحتها جانبًا، اعتلت قلب المسكين ودوخته.

أنا الآن كما هي بالأمس، كلتانا تتأملان وتنتظران، ماذا ننتظر؟ ننتظر يومًا جديدًا وها قد وصل الليل آخره، وازداد الهواء عذوبة، لم أبرح مكاني وبقيت جامدة حتى تبلج الفجر، انجلت الظلمة، وأشرقت الشمس سائرة في طريقها الأزلي إلى الغروب. انتصبت، مغطت ذراعي بعد طول جلوس، عظام جسمي تؤلمني، لا بأس من الخروج إلى الشارع في هذا الصباح الكئيب. دخلت غرفتي وغيرت ملابسي، ارتديت قميصًا أصفر ذا أزرة سود، تركت الاثنين العلوييين مفتوحين فتبدى مفرق صدري، لم أغلقهما عمدًا، ليس لغواية الرجال ولكن لتفاهتهم. فضلت التنورة الخضراء القصيرة على البنطلون، لبستها على عجل، لملمت شعري وبعقدة واحدة ربطته بشريط بنفسجي، ارتديت بوت شتائي ليغطي ساقي رغم حرارة الجو، لونه أحمر غامق.

هبطت السلم بهدوء، قد يثير وقع أقدامي الجيران، وصلت عتبة باب العمارة، تلفت يمينا ويسارا، احترت أيهما أسلك، فاخترت

اليمين، مشيت بلا مبالاة، عيناي تجوسان سيارة مركونة بلا أرقام، مؤخرتها منتفخة، تلتمع من النظافة، لو أن صاحبها يهتم بنظافة الشارع أكثر من السيارة لما كثرت القاذورات، صرت أكثر من الاهتمام بالمزابل، أقف غير بعيدة عنها وأستغرق فيها النظر، إنها تنقل صورة حية عن واقع البيت العراقي ويومياته البسيطة.

لم تزل معظم المحال مغلقة عدا مخبز وقف عامله يدوف عجينة ثم يلملمها في كرة بحجم كفيه الكبيرتين، يضعها على خشبة مستطيلة مع عجائن أخريات ثم يدلق لسانها داخل تنور مسجور. صاحب المقهى يرتب الكراسي فيما يصدح التلفزيون بصوت قارىء يرتل القرآن الكريم. ليست هي المرة الأولى التي أتسكع فيها في شارع الحبوبي.

مذ تركت الوظيفة وأنا أتجول على غير هدى في هذا المكان. حتى أن أصحاب المحلات ألفوا جولاتي هذه، إذ آخذ شارع الحبوبي طولًا حتى نهايته ثم أعود أدراجي إلى شقتي. لم يكن الشارع فارغًا، اتخذ أفراد الشرطة أماكنهم مرابطين في دورية نجدة صغيرة، شرطي المرور ينظم سير السيارات المتقطع. قرويون يغذون السير مع نسائهم المتلفلفات بعباءاتهن. رجل بدشداشة معقشة وعقال وبري يعتلي يشماغه الأسود. يمشي بعجالة ومن خلفه امرأته يسرح بها كنعجة يقودها إلى الذبح، وليس لها إلا الطاعة العمياء.

وصلت دوار الحبوبي حيث ينتصب التمثال العتيد وسط ساحته، تركته خلفي ومضيت في الشارع الذي لن أصل نهايته إلا بعد أن تتقطع ركبتاي. صاحب بسطة يجلس خلف علب سجائر مختلفة أنواعها، ما إن أقبلت عليه حتى صاح لرجل يفتح أقفال محله:

- **باوع.. إجت المجنونة.**

رد الآخر بألم:

- **خطية.. مسكينة.**

- **هاي من بغداد..**

سيارة شحن كبيرة مرت بقربي، شتت ضجيجها حديثهما. طالما سمعت مثل هذا الكلام فأستمر في دربي، لا أرد عليهم ولا أعيرهم أي اهتمام، فهذا هو ديدني مع الكل. لقد أسرف الجنوبيون في كلمة «خطية» حتى إنها لتقال لمن يتزوج من حبيبته أو يشتري لنفسه سيارة حديثة. أنتم المساكين ولست أنا، لربما كنت أفضل حالًا منكم رغم كل ما تصمونني به من جنون.

انحرفت بمسيري في شارع فرعي. حاوية قمامة حديدية تكومت حولها النفايات بشكل مثلث عريض الأضلاع، تباينت عليها الألوان، اقتربت منها، زكمتني رائحتها العطنة، يهيم عليها الذباب بكثرة، نششته عني، أغلقت فمي، انغرس البوت بين القذارة فطقطقت من

تحتي قطعة بلاستيكية، وانبعجت علبة لمشروب غازي، أمامي قطع الجبن الفارغة وأكياس سود وحمر مع كرسي عتيق فاقد لاثنتين من قوائمه الحديدية، تتبعثر مساحيق غسيل فارغة وقناني البيبسي الملونة مع طبقات البيض الفارغة.

قطة تبحث عن طعامها بداخل كيس ممتليء بالرز، وديدان تنتشر على الأرض. كنت أطأ الأزبال وأتقدم بداخلها حتى توسطتها تمامًا، فهذا هو المكان الخليق بي، والذي أجد نفسي به. هنا.. وسط المزبلة. ما الفرق بيني هنا أو أكون في شقتي؟ لا فرق ألبتة، كلاهما سواء. لم لا يتم تنظيف مركز المدينة؟ سؤال وجهته إلى سليم ذات يوم. أجابني:

- اشلون ننظفها يا بعد عيني، إذا واحد ينظف ومية اللي يوسخون.

أوضح لي بأن الأزبال في عموم العراق أكثر من عمال النظافة، أصبح العراق مستهلكًا شرها بعد انفتاحنا على السوق العالمية، فكثر الاستيراد مع زيادة الدخل، ومن الطبيعي أن تكثر النفايات أيضًا. ثم ضحك وقال:

- هذا دليل نعمة.. إن دل فإنما يدل على أن الشعب يعيش في بحبوحة من أمره.

- يا بحبوحة يمعود.. نظفوا مدينتكم لا تقتلكم الأمراض.

- من هاي الناحية لا تخافين.. صارت عدنا مناعة.

أثناء وقوفي وسط المزبلة، ضحكت بصوت عال. توقف المارة ينظرون لي بدهشة، ازداد ضحكي، اقترب مني رجل ملتحي يروم ابعادي عن هذا المكان، ما إن وصلني حتى دفعته في صدره، تراجع خائفًا، كلهم هكذا، يخشون المرأة القوية ويخافون غضبتها. كثر الجمع من الرجال والنساء، وحتى الأطفال، يتفرجون على معتوهة مخبولة. نظراتهم تحمل الكثير من الإشفاق، أنتم المجانين وأنا الوحيدة التي لم يمسسها السوء. أحدهم يقول:

- **ابتلينا بهاي المجانين.**

رد عليه آخر:

- **كل يوم يطلع لنا مسودن جديد.**

امرأة تتساءل:

- **هسة هاي ال**مخبلة ما عدها أهل؟.. أهلها وين؟

- **المفروض يربطونها بسلاسل أو يسجنونها بغرفة لوحدها.**

أحد الشبان يخبر صديقه:

- **انظر.. هي هاي المرية اللي شفناها بمقطع سكسي مع صديقها.**

- **انجنت المسكينة.**

- **أعتقد جنت بسبب الفضيحة.**

- عليها جسم خرافي.. صاكة!

بصقت عليهما، صرخت بوجوه المتجمهرين أن يتفرقوا، لم يتحرك أحد، انحنيت، التقطت قنينة زجاج فارغة، قذفتهم بها، أصابت أحد الصبية، ردها علي فداريتها بذراعي، آلمتني الضربة، شتمته وشتمت أهله، هتف مع صبية آخرين:

- هيه هيه مخبلة.. هيه هيه مخبلة.

أسكتهم رجل مسن، طردهم بعصاه، قررت أن أتحداهم جميعا، فتحت أزرة القميص، واحدًا إثر الآخر، تبدى صدري أمامهم، منهم من غض بصره حياء، ومنهم من اتسعت عيناه منتظرًا المزيد. لا أعلم ما الذي حصل لي؟ فغرقت في ضحك متواصل، لا أعرف سببه، ضحكت حتى سالت الدموع على خدي. ضحكت فضحك كل الحاضرين معي، لا أحد يعرف لماذا يضحك؟ كنا نضحك بلا سبب، ضحكنا كلنا فتوقفت السيارات، نزل منها السواق والمستأجرون، ليشاركونا، وبينا كنت غارقة في الضحك.. توقفت فجأة. حدقت بهم، سكتوا، لم يتكلم منهم أحد، بانتظار المشهد الأخير. هل هم أناس حقيقيون، أم افتراضيون؟ مجرد أيقونات تعلق بغريزة حيوانية على موقع «الخوة الوصخة».

هم أنفسهم.. هذه العجوز هي نبعة الحنان، وهذا الرجل الواقف هو عراقي وافتخر، وذاك الصبي جيفارا.. وأنا.. أين أنا بينهم؟ هل أنا في حلم أم حقيقة؟ إنهم ينتظرون نجمتهم الافتراضية التي شاهدوها عارية عبر شاشات هواتفهم الصغيرة، ينتظرونها أن تكمل لهم عريها. وقبل أن أخلع القميص رأيته.. نعم رأيته يخوض في القذارة ليصل إلي، إنه سليم، ما الذي جاء به هذه الساعة؟ اللعنة، لم أستطع إكمال المشهد، أمسكني بعنف، استسلمت لقبضته القوية، همس بأذني:

- اغلقي أزرة القميص.

لما وجدني مستسلمة بصمت، أتى عليها غلقًا حتى آخرها. مضى بي بهدوء عابرًا المزبلة، أصبحنا وسط الجمهور، خاطبهم:

- ابتعدوا قليلاً.. انها ابنة خالي.. تمرضتْ مؤخرًا.

- أين أنا؟

- في الناصرية.

- أريد أمي.

- سآخذك إليها.

- من أنت؟

- أنا سليم.

- سليم! من يكون سليم هذا؟

- صديقك الذي أحبك.. يا غادة.

- هل أنت حقيقة أم حلم؟

- لا توجد حقيقة في العراق.. كله أحلام في أحلام.

- ليست أحلام.. إنها كوابيس.